من النجوم إلى الأرض

(للأطفال)

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد

سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

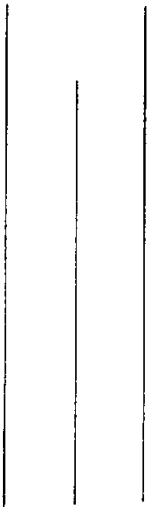

من النجوم إلى الأرض

(للأطفال)

حقوق الطبع والتصوير محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

من النجوم إلى الأرض

(للأطفال)

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد

سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مقدِّمة الكتاب

الحَمْدُ لله ، والصَّلاَةُ والسَّلاَمُ على نَبِيِّه المُصْطَفَى، وعلى آلِه وأَصْحَابِه وسَلّم.

أمَّا بَعْدُ: فقد عُرِفَ رَائِدُ الأَدَبِ الإسْلاَمِيّ وفَقِيْدُ الدَّعْوَةِ الإسْلاَمِيَّة: الشَّيْخ أبو الحَسَن عَلِيّ الحَسَنِيّ النَّدْوِيّ بالكِتَابَة للأَطْفَالِ المُسْلِمِيْنَ النَّاشِئِيْنَ بوَصْفِهم رِجَالَ الغَدِ وصُنَّاعَ مُسْتَقْبَلِ الأُمَّـةِ، بِما قَدَّمَ إليهم - رحمه اللهُ تعالى - مِن الكُتُبِ النَّفِيْسَةِ المُمْتِـعَةِ (١) بلُغَةٍ سَهْلَةٍ وأُسْلُوْبٍ عَذْبٍ سَلِسٍ شَيِّقٍ، مُضَمِّناً إيَّاهَا مِن المَعَانِي والقِيَم، والدُّرُوْسِ والعِبَرِ، والمَبَادِئ والمُثُلِ، بحَيْثُ تُفِيْدُهم تِلْكَ الكُتُبُ في تَرْسِيْخِ عَقِيْدَتِهم، وتَزْوِيْدِهم بالثَّقَافَةِ الإسْلاَمِيَّةِ، مع تَمْكِيْنِهم مِن اللُّغَة والأُسْلُوْبِ.

وقد تَـحَدَّثَ الشَّيْخُ في صَفْحَاتٍ مَعْدُوْدَةٍ من الجُزْءِ الأخِيْرِ لكِتَابِه المُسَمَّى بـ"القِرَاءَة الرَّاشِدَة" عن التَّارِيْخِ الإسْلاَمِيِّ المَجِيْدِ

---

(١) مثل: "قصص النبيين"، و"سيرة خاتم النبيين"، و"قصص من التاريخ الإسلامي"، و"القراءة الراشدة".

بأُسْلُوْبٍ عَذْبٍ أَخَّاذٍ، والَّذِيْ يَشْمَلُ الكَثِيْرَ مِن الجَوَانِب المُشْرِقَةِ الوَضَّاءَةِ، والدُّرُوْسِ والْعِبَرِ، التي يَجِبُ أن يَقِفَ عليها الأَطْفَالُ النَّاشِئُوْنَ؛ لذلك تَرَاءَى لِي أن أُفْرِدَ تلك الصَّفْحَاتِ في كُتَيِّبٍ مُسْتَقِلٍّ يَكُوْنُ لهم سَهْلَ التَّنَاوُلِ وقَرِيْبَ التَّدَاوُلِ، مع التَّعْلِيْقِ على ما دَعَتْ إليه الضَّرُوْرَةُ منه، أَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يَتَقَبَّلَ هذا السَّعْيَ وينْفَعَ به، إنَّه وَلِيُّ ذلك والقادِرُ عليه.

كتبَهُ المعتزُّ بالله تعالى

سيِّد عبد الماجد الغوري

دمشق ٢٤/ صفر ١٤٢٢هـ

١٧/ أيار ٢٠٠١م

مِنَ النُّجُوْمِ إلى الأرْضِ

دَرَسْتُ في المَدْرَسَةِ أمْسِ أنَّ النُّوْرَ يَقْطَعُ مِئَةَ ألْفٍ وَسِتَّةَ وَثَمَانِيْنَ مِيْلاً في ثَانِيَةٍ ، وأنَّه يُمْكِنُ لَهُ أنْ يَطُوفَ حَوْلَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ سَبْعَةَ أشْوَاطٍ في أقَلّ مِنْ ثانِيَةٍ .

وَسَمِعْتُ أنَّ مِنَ النُّجومِ ما لا يَصِلُ ضَوْؤُهُ إلَّا في ألْفَيْ عَامٍ وَمِنْهَا ما لا يَصِلُ ضَوْؤُهُ إلَّا في أكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ وأنَّ ضَوْءَ بَعْضِ النُّجُومِ مُنْذُ طَلَعَتْ لا يَزَالُ في طَرِيقه إلى الأرْضِ ولَمَّا يَصِلْ إلَيْهَا .

لِي غَرَامٌ شَدِيدٌ[1] بالتَّارِيخِ ، لا أزَالُ أطَالِعُهُ بِرَغْبَةٍ عَظِيمَةٍ وأتمَثَّلُهُ أمَامَ عَيْنَيَّ ، كَأنَّ الحَوَادِثَ وَاقِعَةٌ والأشْخَاصَ أحْيَاءٌ ولا أزَالُ أتَأَسَّفُ عَلَى ما فَاتَنِي مِنْ مُشَاهَدَةِ الحَوَادِثِ في سَاعَتِها وَمِنْ زِيَارَةِ رِجَالٍ مِنْ عُظَماءِ

---

(١) غرام شَديدٌ ، أي : وُلُوْعٌ وحُبٌّ وتعلق بالشيء .

التّارِيخِ في زَمَانِهِمْ ، ولَمْ أزَلْ مُنْذُ صِبَايَ أقُولُ لِوَالِدي وَأصْدِقَائي : يا لَيْتَني وُلِدْتُ في الزَّمَنِ المَاضِي فَشَاهَدْتُ كَذَا وَكَذَا مِنَ الوَقَائِعِ ، وَزُرْتُ فُلاناً وَفُلاناً مِنَ الرِّجَالِ ، لَقَدْ غَابَ عَنِّي طُوفَانُ نُوحٍ ، وَمِحْنَةُ إبْرَاهِيمَ ، وَخُرُوجُ بَنِي إسْرَائِيلَ ، وَسَبَقَتْنِي بَعْثَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأكْثَرَ مِنْ ألْفِ عَامٍ ، وفَاتَنِي عَهْدُ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ ، وَفَاتَتْني حَضَارَةُ بَغْدَادَ وَعَهْدُ قُرْطُبَةَ وَغِرْنَاطَةَ وَفَاتَنِي وَفَاتَني وَفَاتَني .

وكُنْتُ أُعِدُّ الحَوَادِثَ الكَبيرةَ وَالرِّجَالَ العُظَمَاءَ وأقُولُ في حُزْنٍ وَأَسَفٍ : لَقَدْ تَأَخَّرْتُ كَثِيراً ، فَلَيْتَ الزَّمانَ يَعُودُ ، وَلَيْتَ البَشَرَ يَسْتَأْنِفُونَ السَّفَرَ ، وَلَيْتَ العَالَمَ يرجع القَهْقَرَى[1] ، وَلَيْتَ التَّارِيخَ يُرَدُّ عَلَى أعْقَابِهِ ، فَأُشَاهِدُ ما مَضَى وَأُعَاشِرُ مَنْ سَبَقَ .

وَكُنْتُ أفَكِّرُ لَوْ كَانَ أحَدٌ فَوْقَ نَجْمٍ لا يَصِلُ ضَوْؤُهُ إلى الأرْضِ إلَّا في آلافٍ أوْ مِئاتٍ مِنَ السِّنينَ لَرَأى العَالَمَ

---

(١) القَهْقَرى : أي : الرُّجوعُ إلى الخلف ، يُقالُ : فُلانٌ يمشي القَهْقَرى : أي : يرجَعُ على عَقِبَيْهِ .

كَمَا كَانَ قَبْلَ آلافٍ أوْ مِئاتٍ مِنَ السِّنينَ ، وكَذَلِكَ يَمْكِنُ أنْ يُطَالِعَ أهْلُ النَّجُومِ أدْوَارَ التَّارِيخِ الْماضِيَةِ وَيُشَاهِدُوا الحَوَادِثَ وَالأشْخَاصَ في زَمَنِهِمْ وَفِي مَحَلِّهِمْ .

سُرِرْتُ مِنْ ذَلِكَ جِدّاً كَأَنِّي وَجَدْتُ ضَالَّتِي وَعَرَضْتُ هَذِهِ الفِكْرَةَ البَدِيعَةَ عَلَى مَعَلِّمِ الطَّبيعيَّاتِ لأنِّي لا آمَنُ عَلَى نَفْسي الخَطَأَ .

قَالَ المُعَلِّم : نَعَمْ ! إذَا فَرَضْنَا أحَداً فَوْقَ الشَّمْسِ ـ وَهِيَ تَبْعُدُ مِنَ الأرْضِ ثَلاثَةً وَتِسْعِينَ مِلْيُوناً ـ فإنَّه يَرَى في الأرْضِ مَا وَقَعَ قَبْلَ ثَمَانِيَ ثَوَانٍ فَقَطْ فَإنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ يَصِلُ إلى الأرْضِ في ثَمَانِي ثَوَانٍ .

وَهَكَذَا نَـتَدَرَّجُ وَنَقُولُ مَنْ كَانَ فَوْقَ النُّجُومِ العَالِيَةِ التِي يَصِلُ ضَوْؤُهَا إلَى الأرْضِ فِي آلافٍ مِنَ السِّنِينَ لَكَانُوا يَرَوْنَ حَوَادِثَ قَبْلَ التَّاريخ . ومَاوَقَعَ قَبْلَ آلافٍ مِنَ السِّنِينَ بَعْدَ آلافٍ مِنَ السِّنِينَ .

لَمْ أزَلْ أُفَكِّرُ في ارْتِفَاعِ النُّجُومِ وَبُعْدِهَا عَنِ الأرْضِ وَمُطَالَعَةِ أهْلِهَا لِمَا وَقَعَ في الأرْضِ ، حَتَّى لَمْ أشْعُرْ إلَّا وأني في مَكَانٍ أطَالِعُ فِيهِ الأرْض بِمُكَبِّرَةٍ كَبِيرةٍ ، فَإذَا بِي

أرَى الأرْضَ غَيْرَ الأرْضِ التي كُنْتُ أعْرِفُهَا ، وَالنَّاسَ غيرَ الـذِيـنَ عَهِـدْتُهُـمْ ، أرَى المَسَـاجِـدَ عَـامِـرَةً غَـاصَّـةً[1] بـالمُصَلِّيـنَ ، وأرَى الحُـدُودَ قَـائِمَـةً ، وأحْكَـامَ الشَّـرْعِ نَافِذَةً ، وأجِيلُ مُكَبِّرَتِي وَأنْظُرُ مِنْ خِلالِهَا فَلا أرَى فُجُوراً وَلا دَعَارَةً وَلا سُكْراً وَلا قُمَاراً .

وَاطَّلَعْتُ عَلَى بُقْعَةٍ فِيهَا نَخْلٌ كَثِيرةٌ ، ومَسْجِدٌ بَسِيطٌ قَدْ غَشِيَتْهُ سَحَابَةٌ مِنَ النُّورِ والبَرَكةِ ، وعَرَفْتُ أنَّهَا مَدِينةُ الرَّسُولِ ﷺ وَرَأيْتُ بُيُوتاً مُتَوَاضِعَةً قَدْ بُنِيَ أكْثَرُهَا مِنَ

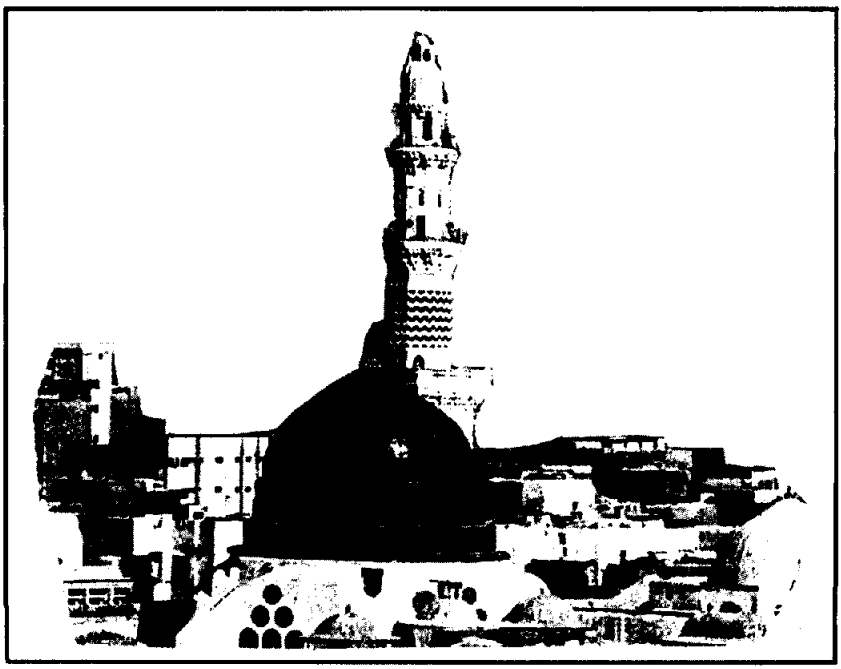

صورة المدينة المنورة

(١) غَاصَّةٌ : مَلِيئةٌ ، حَافِلَةٌ .

اللَّبْنِ : لَكِنِّي رَأَيْتُ هَنَالِكَ سُفَرَاءَ الدُّولِ الْكَبِيرَةِ ، وَأَبْنَاءَ مَلُوكٍ قَدْ أَسْلَمُوا ، فَعَرفْتُ أَنَّ هَذِهِ المَدِينةَ الصَّغِيرَةَ مَعَ بَسَاطَتِهَا تَحْكُمُ العَالَمَ ويُجْبَى إِلَيْها خَرَاجُ إِيرَانَ وَرُوْمَةَ .

وَبَحَثْتُ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا مَحْكَمَةً وَلا سِجْناً فَقُلْتُ فِي نَفْسي فَأَيْنَ يَذْهَبُ المُتَخَاصِمُونَ ، وَأَيْنَ يُحْبَسُ المُجْرِمُونَ ؟ فإذا بِي أَرَى رَجُلاً جَالِساً في مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ في ثِيَابٍ مَرْقُوعَةٍ ، أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ وَجَلالٌ ، قَدْ حَضَرَ لَدَيْهِ خَصْمَانِ وَرَفَعَا إِلَيْهِ القَضِيَّةَ في بَسَاطَةِ الأَعْرابِ ، وَقَالا : ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا[1] عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[2] وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [ص : ٢٢] .

سَمِعَ الرَّجُلُ القَضِيَّةَ في هُدُوءٍ وَتَأَنٍّ[3] ، وقَالَ للمُدَّعِي : البَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَاليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ بَيِّنَةٌ أَوْ أَسْتَحْلِفُ الرَّجُلَ ؟ . وَقَدَّمَ الرَّجُلُ شُهُوداً عُدُولاً ، فَقَضَى لَهُ وَانْفَصَلَتِ القَضِيَّةُ في سَاعَةٍ ،

---

(١) بَغَى بَعْضُنا ، أي : تَعَدَّى ، وظَلَمَ ، وجَارَ .

(٢) وَلَا تُشْطِطْ ، أي : لا تَجُرْ وَلَا تَظْلِمْ في حُكْمِكَ .

(٣) تأنى : تمهل وتثبت .

وقَامَ الفَرِيقَانِ وَرَضِيَا بِحُكْمِ الشَّرْعِ ، فَقُلْتُ : لا يَحْتَاجُ هَؤلاءِ إلى مَحْكَمَةٍ وَمُحَامِينَ .

وَرَأَيْتُ أبْوَابَ الْبُيُوتِ في اللَّيْلِ مَفْتُوحَةً ، وَرَأَيْتُ بَيْتَ المَالِ وَقَدْ أتَى إلَيْهِ خَرَاجُ إيرَانَ في ذَلِكَ اليَوْمِ ، لَيْسَ لَهُ حَارِسٌ وَلا شُرْطَةٌ ، وَقَدْ جَاءَ تَاجُ كِسْرَى ، وَهُوَ يُسَاوِي مِئَاتِ آلافٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ ، وَقَدْ وَقَعَ إلى جُنْدِيٍّ فَقِيرٍ فَأَدَّاهُ إلى أمِيرِ الجُنْدِ ، وَأَرْسَلَهُ أمِيرُ الجُنْدِ إلى الخَلِيفَةِ ، وَجَاءَ بَعْضُ السُّرَّاقِ وَقد سَرَقُوا فَقُطِعَتْ يَدُهُمْ ، فَقُلْتُ لا يَحْتَاجُ هَؤُلاءِ إلى سِجْنٍ أوْ مَحْبَسٍ .

وَأَشْرَفْتُ عَلَى بُيُوتِهِمْ فَوَجَدْتُ معيشةً صافيةً ، وَحَياةً رَاضيةً لا يُكَدِّرُهَا حَسَدٌ ولا بَغْضَاءُ ولا طَمَعٌ ولا جَشَعٌ[1] يُؤثِرونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة[2] ، ويُهْدِي جَارٌ إلَى جَارٍ فتَدَوُرُ الْهَدِيَّةُ عَلَى الْحَيِّ وتَرْجِعُ إلَى صَاحِبِهَا الأوَّل ، لا يَأْكُلُ فِيهِمُ القَوِيُّ الضَّعِيفَ ولا يَظْلِمُ الكَبِيرُ مِنْهُمُ الصَّغِيرَ ، يَحْنُوْ عَلَيْهِمُ الخَلِيفَةُ وَالأُمَرَاءُ فَهُمْ لَهُمْ

---

(١) الجَشَعُ : الطَمَعُ .

(٢) الخَصَاصَةُ : الفَقْرُ وسُوْءُ الحالِ والحاجَةُ .

كالآبَاءِ وَيُطِيعُهُمُ العَامَّةُ ويُوَقِّرُوْنَهُمْ وَيَنْصَحُوْنَ لَهُمْ ، فَهُمْ لَهُمْ كَالأبْنَاءِ ، ويَتَنَاصَحُوْنَ بَيْنَهُمْ فَهُمْ إخْوَةٌ .

وَاطَّلَعْتُ عَلَى ثُكْنَاتِهِمْ[1] ـ وَسَمِعْتُ أنَّ الْجُنْدَ أفْسَدُ النَّاسِ أخْلاقاً وَأبْعَدُهُمْ عَنِ الدِّيْنِ وَالْفَضِيلَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ـ فَوَجَدْتُهُمْ باللَّيْلِ رُهْبَاناً ، لَهُمْ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، وأَمَّا بِالنَّهَارِ فَفُرْسَانٌ يُثَقِّفُوْنَ الْقَنَا[2] ويَرِيْشُوْنَ النَّبْلَ ، يُوْفُوْنَ بِالْعَهْدِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ، لا يَأْكُلُوْنَ فِي ذِمَّتِهِمْ إلَّا بِثَمَنٍ ، وَلا يَدْخُلُوْنَ إلَّا بِسَلامٍ ، ويَعِفُّوْنَ عَنِ الْمَحَارِمِ وَيَغُضُّونَ الْبَصَرَ ، فَقُلْتُ إذا كَانَ الجُنْدُ فِيْهِمْ هَكَذَا فَكَيْفَ بِالْعُبَّادِ الزُّهَّادِ .

قُلْتُ لَعَلَّ هَذَا دَوْرُ الْخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ ، وَصَدَّقْتُ ما قَرَأْتُ في التَّارِيْخِ ، وقُلْتُ : ذَلِكَ قَلِيْلٌ مِنْ كَثِيرٍ .

وَنَزَلْتُ أسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ فَرَأيْتُ الأمُوْرَ قَدْ تَغَيَّرَتْ ، وَأَنَّ الْعَاصِمَةَ قَدْ تَحَوَّلَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ ـ عَلَى سَاكِنِهَا أَلْفُ أَلْفِ سَلامٍ ـ إلى دِمَشْقَ الشَّامِ ، فإذَا قُصُوْرٌ

---

(١) ثُكَناتُ جمع ثُكْنَةٌ : مَقَرُّ الجُنْدِ .

(٢) القنا : الرماح .

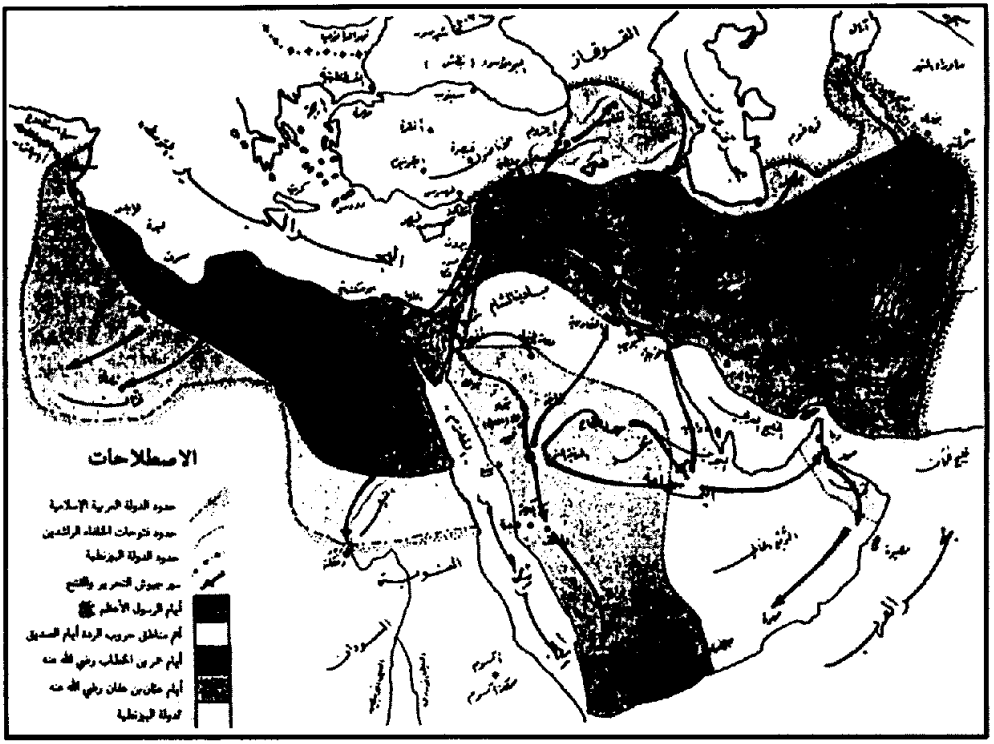

خريطة الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة

عالِيَةٌ قَدْ عُلِّقَتْ عَلَى أبْوَابِهَا سُتُوْرٌ جَمِيلةٌ ، وكُسِيَتْ جُدْرَانُهَا بِثِيَابٍ فَاخِرَةٍ ، وَإذَا مَسَاجِدُ شَامِخَةٌ تُنَاطِحُ مَنَارَاتُهَا السَّمَاءَ[1] وَهِيَ عَامِرَةٌ بالْمُصَلِّيْنَ ، وَرَأيْتُ فِيْهَا حَلَقَاتِ الدَّرْسِ ، وَمَجَالِسَ الْعِلْم ، وَهِيَ غَاصَّةٌ بِطَلَبَةِ عِلْمَ الدِّيْنِ ، وَالشُّيُوْخَ يُحَدِّثُوْنَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ، وَالنَّاسَ يَكْتُبُونَ وَيَحْفَظُوْنَ .

---

(١) تُنَاطِح مَنَاراتُهَا السَّمَاءَ ، أي : تُغَالِبُهَا .

وَرَأَيْتُ النَّاسَ أَنْوَاعاً ، مِنْهُمُ الزُّهَّادُ وَالعُبَّادُ ، وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ ، وَمِنْهُمُ المُتْرَفُونَ ، وَرَأَيْتُ آثَارَ الْحُرِّيةِ وَالتَّرَفِ ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ طَبَقَاتٍ فِي الغِنَى وَالثَّرْوَةِ وَالْجَاهِ وَالشَّرَفِ ، فهَذَا ابْنُ الْخَلِيفَةِ فِي زَهْوِهِ وَخُيَلائِهِ[1] ، وذَلِكَ عَامِلُ الْعِرَاقِ فِي خَدَمِهِ وحَشَمِهِ[2]، وَهَذَا صُوْفِيٌّ وَذَلِكَ شَرِيْفٌ .

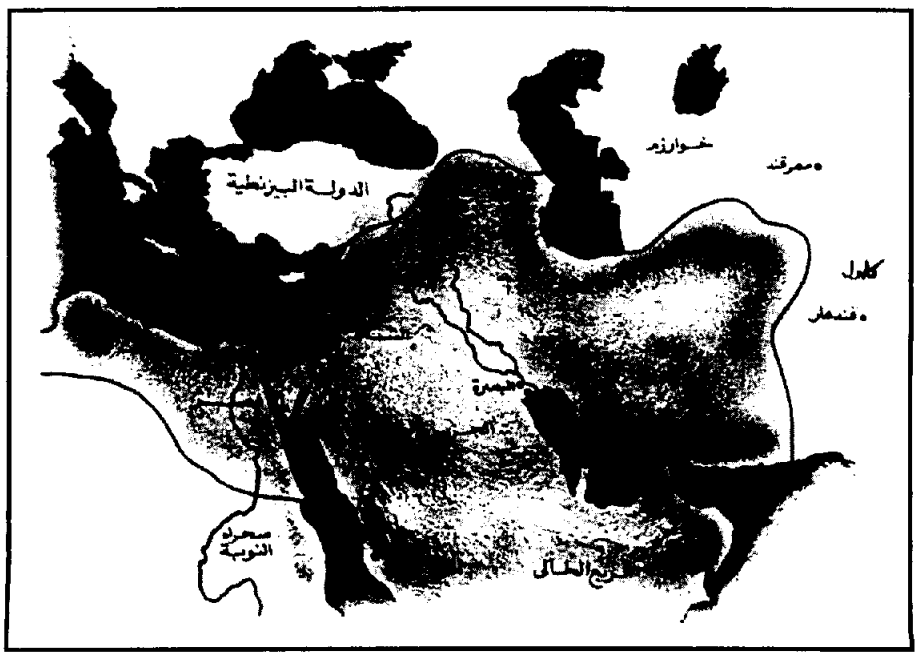

خريطة الدولة الأموية

---

(١) خُيَلائِهِ ، أي : تكبُّرِهِ وعُجْبِهِ .
(٢) حَشَمِهِ ، أي : عَبِيْدِهِ . (جَمْعُهُ : أَحْشَامٌ) .

وَرَأَيْتُ بَعْضَ الْحُدُودِ قَائِمَةً ، وَبَعْضَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ نَافِذَةً ، وَرَأَيْتُ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الدِّيْنِ يَحْتَسِبُوْنَ عَلَى النَّاسِ مُتَطَوِّعِيْنَ[1] فَيَخْضَعُوْنَ لَهُمْ وَيَسْتَسْلِمُوْنَ ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ غَيْرَ مُجَاهِرِيْنَ بِالْفِسْقِ ، غَيْرَ مُصِرِّيْنَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ يَحْتَرِمُونَ أَهْلَ الدِّيْنِ وَالْعِلْمِ .

وَرَأَيْتُ الْخَلِيفَةَ وَالأَمِيْرَ مَعَ تَرَفِهِ[2] يُصَلِّي بِالنَّاسِ وَيَخْطُبُ فِيْهِمْ وَيَجْلِسُ لَهُمْ ، وَرَأَيْتُ مَدِيْنَةً عَرَبِيَّةً ، فَالْخُلَفَاءُ يَصِلُونَ الشُّعَرَاءَ بِجَوَائِزَ كَبِيرَةٍ ، وَيَنْحَرُوْنَ جَزُوْراً[3] ، وَيُطْعِمُوْنَ النَّاسَ ، وَرَأَيْتُ دَوْلَةَ الْمُسْلِمِيْنَ قَد اتَّسَعَتْ حَتَّى امْتَدَّتْ إلى حُدُوْدِ الْهِنْدِ فِي جَانِبٍ ، وَإِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الأَطْلانْتِيْكِيِّ في جَانِبٍ آخَرَ ، لا تُقْطَعُ في أَقَلِّ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ عَلَى أَسْرَعِ جَمَلٍ .

فَقُلْتُ لَعَلَّ هَذَا عَصْرَ الأُمَوِيِّيْنَ ، وَلَعَلِّي في نِهَايَةِ الْقَرْنِ الأَوَّلِ .

ثُمَّ انْحَدَرْتُ إلى أَسْفَلَ ، فَرَأَيْتُ مَدِيْنَةً حَدِيْثَةً عَلَى

---

(١) مُتطوِّعِيْنَ ، أي : يقبلون على العمل باختيارهم .

(٢) مَعَ تَرَفِهِ ، أي : مع تَنَعُّمِهِ .

(٣) الجزور : الجمل .

ضَفَّتي دجلة[1] ، وَرَأيْتُ مَدِيْنَةً خَلِيطاً ، فِيْهَا صُوَرٌ عَرَبِيَّةٌ ، وَفِيْها صُوَرٌ عَجَمِيَّةٌ ، وَالنَّاسُ أخْلاَطٌ فيْهِمُ

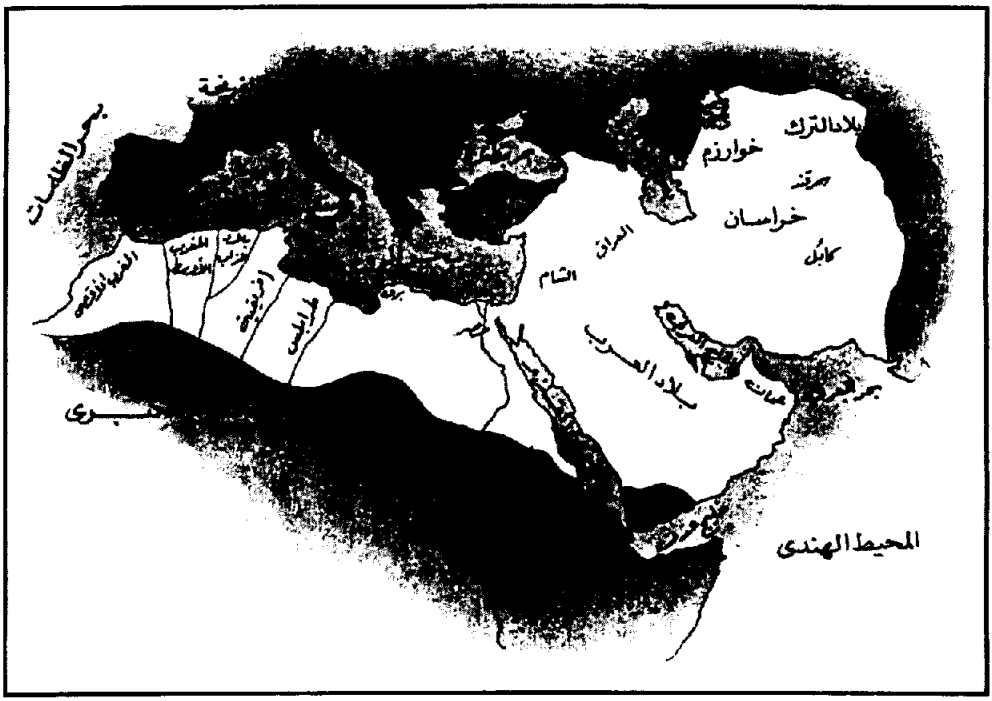

خريطة الدولة العباسية

الْعَرَبُ ، وَفِيْهِمُ الْفُرْسُ ، وَفِيْهِمْ أهْلُ الْهِنْدِ ، وكَثِيرٌ مِنْهُمُ التُّرْك ، وَرَأَيْتُ قَصْرَ الخَلِيْفَةِ مِثْلَ قُصُوْرِ مُلُوْكِ الْعَجَمِ يَحْرُسُهُ التُّرْكُ ، وَكَذٰلِكَ قُصُوْرُ الْوُزَرَاءِ وَالأمَرَاءِ ، وَرَأيْتُهُمْ يَخْرُجُوْنَ فِي مَوَاكِبَ مُلُوْكِيَّةٍ في أبَّهةٍ عَظِيْمَةٍ .

---

(١) ضَفَّتي دجلة ، أي : جانبي دجلة .

وَرَأَيْتُ بَعْضَ النَّاسِ يُرَبُّوْنَ الْحَمَامَ وَيَشْتَرُوْنَهُ بِأَثْمَانٍ غَالِيَةٍ ، ويَتَهارَشُوْن[1] بالدُّيُوْكِ وَالْكِلابِ ، وَرَأَيْتُ أَنْوَاعَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ ، فَقُلْتُ جَاءَ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ الأَمْوَالِ وَاخْتِلاطِ الأَعَاجِمِ .

وَرَأَيْتُ الْقُضَاة ، وَقَاضِيَ الْقُضَاةِ ، قَدِ ازْدَحَمَ عَلَيْهِ الْمُتَظَلِّمُوْنَ ، وَهُوَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ، وَقَدْ تَأْخُذُ قَضِيَّةٌ أَيَّاماً ، وَرَأَيْتُ السُّجُوْنَ قَدْ غَصَّتْ بِالْمُجْرِمِيْنَ وَاللُّصُوْصِ وَالشُّطَّار[2] .

وَرَأَيْتُ كَذَلِكَ مَسَاجِدَ مُزْدَحِمَةً بِالْمُصَلِّيْنَ ، وَمَدَارِسَ غَاصَّةً بِطَلَبَةِ عُلُوْمِ الدِّيْنِ ، وَمَجَالِسَ الْوَعْظِ عَامِرَةً بِالْمُسْتَمِعِيْنَ ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَجُزُّوْنَ نَوَاصِيَهُمْ[3] ، ويَخِرُّوْنَ مَغْشِياً عَلَيْهِمْ ، ويَتُوْبُوْنَ عَنِ المُنْكَرَاتِ ، ويُسْلِمُ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ كُلَّ جُمُعَةٍ ، فَقُلْتُ إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَفْقِدُوْا قُلُوْبَهُمْ وإِنَّ الدِّيْنَ لا يَزَالُ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى القَلْبِ وَالرُّوْحِ .

---

(١) يَتَهَارَشُوْنَ بالديوك والكلابِ ، أي : يُوثبونَ الكِلابَ والدُّيوك بَعْضَهُمْ على بعضٍ .

(٢) الشطَّار : جمع شاطر وهو الخبيث الفاجر .

(٣) النَوَاصِي : جمع النَّاصِيَة ، أي : مُقدَّم الرَّأس .

وَرأيْتُ كَذَلِكَ رِجَالًا مُنْقَطِعِيْنَ عَنِ الدُّنْيا مُعْرِضينَ عَنِ المُلُوْكِ وَجَوَائِزِهِمْ وَصِلاتِهِمْ ، يَأْتِي إلَيْهِمُ النَّاسُ مِنْ خُرَاسَان وَالْهِنْدِ وَإيْرَانَ ، وَيَسْتَفِيدُوْنَ ، وَتَأتِيْهِمُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً ، ويَأتِيْهُمُ الْمُلُوكُ وَالأمَرَاءُ صَاغِرِينَ ، فَرَأيْتُ دَوْلَةً دِيْنِيَّةً تُزَاحِمُ الدَّوْلَةَ الْمَادِّيَّةَ، وَتَفُوقُهَا في العِزَّة وَالسُّلْطَانِ.

وَرَأيْتُ أكْبَرَ دَوْلَةٍ عَلَى وَجْهِ الأرْضِ يَنْظُرُ مَلِكُهَا أوِ الْخَلِيْفَةُ ـ كَمَا يَقُوْلُ النَّاسُ فِي تِلْكَ الْبِلادِ ـ إلى سَحَابَةٍ فَيَقُولُ : « **أمْطِرِيْ حَيْثُ شِئْتِ فَسَيَأتِيْنِيْ خَرَاجُكِ** »[1] .

فَقُلْتُ هَذِهِ « بَغْدَادُ » عَاصِمَةُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، ولَعَلِّي في الْقَرْنِ الثَّالِثِ .

وَحَانَتْ مِنِّي التِفَاتَةٌ إلى خَلِيجِ جَبَلِ طارِقٍ ، فَرَأيْتُ عَلَى ضَفَّتِهِ مَدِيْنَةً زَاخِرَةَ الْعُمْرَانِ شَامِخَةَ الْبُنْيَانِ ، وَرَأيْتُ فِيْهَا قُصُوراً مُتَّسِقَةً ، وَحَدَائِقَ مُتَناسِبَةً ، وشَوَارِعَ مَرْصُوْفَةً ، وَعُيُوناً مُتَدَفِّقَةً ، وَجُسُوْراً مَنْصُوْبةً ، ومَسَاجِدَ مُزَخْرَفَةً ، وَمَدَارِسَ مُشَيَّدَةً ، فَتَذَكَّرْتُ ما قَرَأْتُ في التَّارِيْخِ عَنْ مَدِيْنَةِ « قُرْطُبَة » وَعَرَفْتُ أنَّ مَسَاحَتَها سِتَّةُ

---

(١) هو قول الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد .

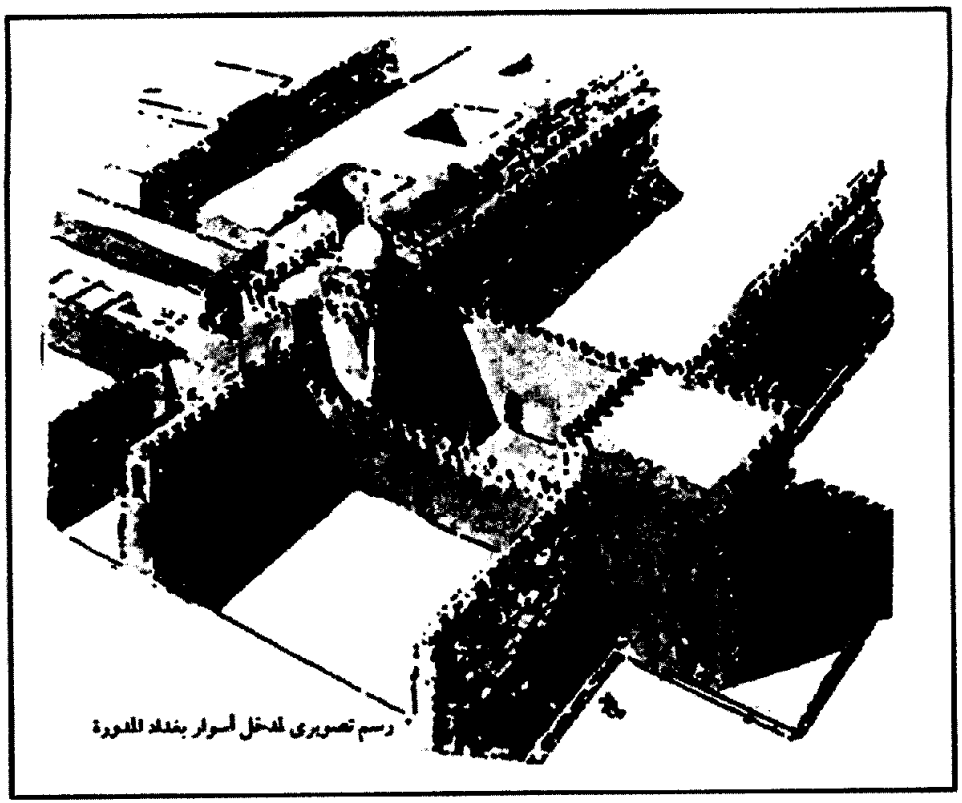

رسم تصويري لمدخل أسوار بغداد المدورة

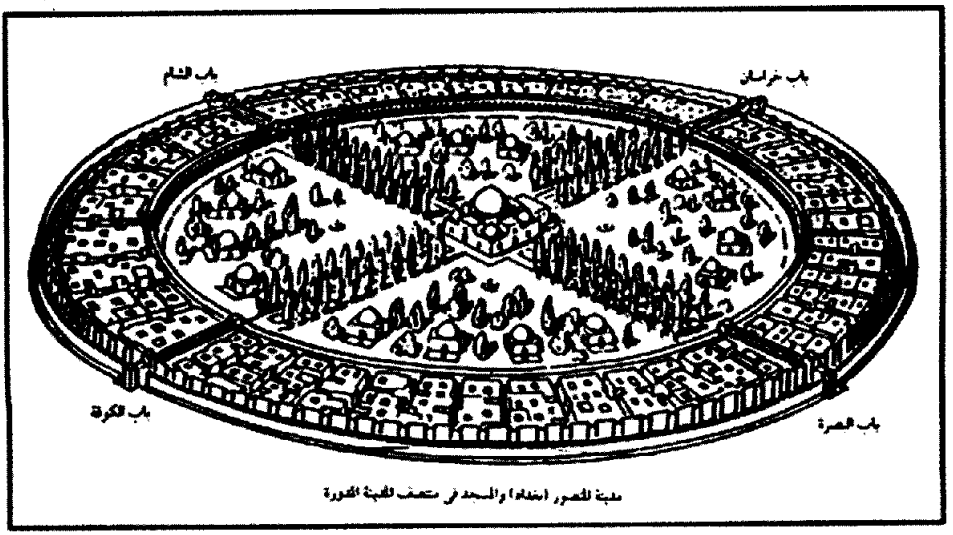

مدينة المنصور (بغداد) والمسجد في منتصف المدينة المدورة

صورة بغداد

عشَرَ مِيْلاً في الطُّوْلِ ، وَسِتَّةُ أمْيَالٍ في الْعَرْضِ ، وأنّ فِيْهَا مِئَةَ أَلْفٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ أَلْفاً مِنَ الْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ ، وَثَمَانُوْنَ أَلْفاً وَأَرْبَعَمِئَةٍ مِنَ الدَّكَاكِيْنِ ، وَسَبْعَمِئَةٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَتِسْعَمِئَةِ حَمَّامٍ ، وَأَرْبَعَةَ آلافٍ وَثَلاثَمِئَةِ مَخْزَنٍ ، وإحْصَاءُ المَدِيْنَةِ يَرْبُو[1] عَلَى مِلْيَوْنٍ .

وَرَأيْتُ في الْمَدِينَةِ مُتَنَزَّهاتٍ فَسِيحَةً ، وَحَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، وَطُرُقاً وَشَوَارِعَ مُبَلَّطَةً بِالْحَجَرِ ، وَسُرَادِقَاتٍ[2] مَنْصُوْبَةً يَأْوِيْ إلَيْهَا الْغُرَبَاءُ وَالبَاعَةُ وَالسَّابِلَةُ في الحَرِّ وَالشَّمْسِ ، وَرَأيْتُ الأسْوَاقَ مَشْحُونَةً بِالْمَتَاجِرِ وَالسِّلَعِ الْغَالِيَةِ الَّتِيْ جُلِبَتْ مِنْ بِلادٍ بَعِيْدةٍ ، وَرَأيْتُ رِبَاطَاتٍ لِلْجَوَّابِيْنَ وَالتُّجَّارِ .

وَرَأيْتُ بِجَنْبِ مَدِيْنَةِ « قُرْطُبَةَ » مَدِيْنَةً صَغِيرةً ما رَأيْتُ أجْمَلَ مِنْهَا عَلَى وَجْهِ الأرْضِ فَقُلْتُ لَعَلَّهَا مَدِيْنَةُ «الزَّهْرَاءِ» الْمَعْرُوفَةُ في التَّارِيخِ ، وأنا في الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَهَذِهِ أيَّامُ مَلِكِ « الأنْدَلُسِ » عَبْدِ الرَّحْمـٰنِ النَّاصِرِ أوْ ابْنِهِ حَكَمِ الثَّانِي .

---

(١) يَرْبُوْ ، أي : يَزِيْدُ .

(٢) سُرَادِقات ، جمع سُرَادِق ، أي : خَيمة يَجْتمع فيها النَّاس .

صورة آثار مدينة الزهراء

وصَرَفْتُ نَظَرِي مِنَ الغَرْبِ إلى الشَّرْقِ ، فَرَأيْتُ دَوْلَةً قَوِيَّةً وَاسِعَةً قَاعِدَتُها نَيْسَابُورُ[1] تَحْكُمُ خَرَاسَانَ والعِرَاقَ وَإيرَانَ ، ويَتَحَكَّمُ مُلُوكُهَا في بَغْدَادَ وَيَنْصِبُونَ وَيَعْزِلُونَ ، ويَغْزُو مَلِكُهَا أَلْبُ أرْسَلانُ الإفْرَنْجَ في دِيَارِهِمْ وَيَأْسِرُ مَلِكَهُمُ النَّصْرَانِيَّ وَيَضْرِبُ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ وَقَدْ بَلَغَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ أوْجَها في عَهْدِ مَلِكِ شَاه وَوَزِيرِه الفَاضِلِ نِظَامِ

(١) مدينة إيرانية تقع في غربي مشهد ، عاصمة خراسان قديماً ، كانت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى .

المُلْكِ الطُّوسي ، فَرَأيْتُ المدْرَسَةَ النِّظَامِيَةَ في بَغْدَادَ

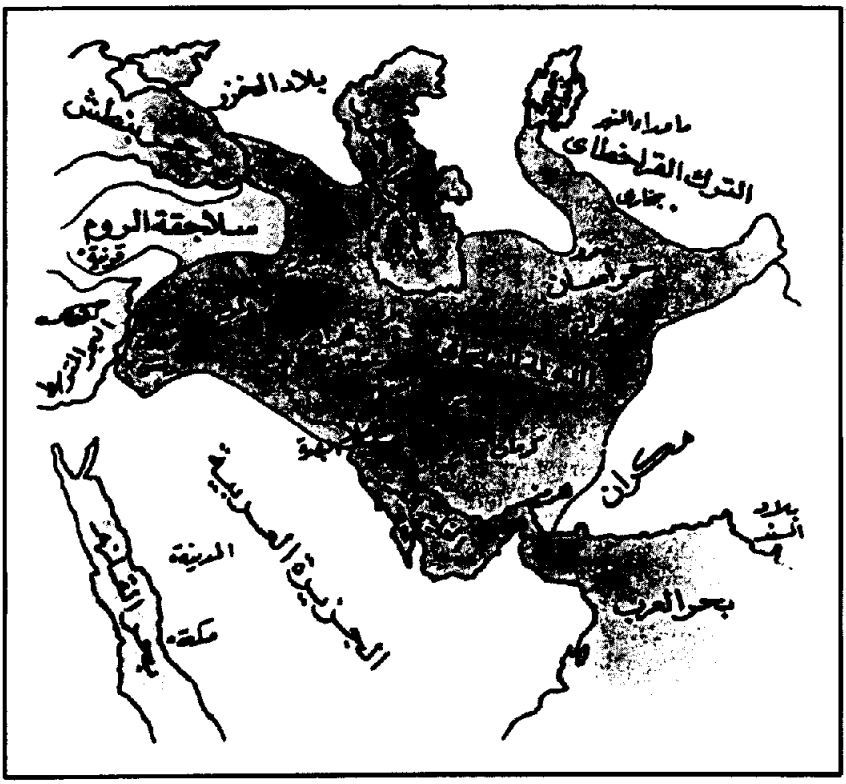

خريطة الدولة السلجوقية

عامِرَةً آهِلَةً يُدَرِّسُ فِيهَا مِثل الإمام أبي حامِدٍ الغَزَاليّ ، وَتُنْفِقُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ السَّلْجُوقِيَةُ ، وَرَأيْتُ شَقِيقَتَهَا المدْرَسَة النِّظَامِيَةَ في نَيْسَابُورَ يُدَرِّسُ فِيها مِثْلُ إمَامِ الحَرَمَيْنِ الجُوَيْنيِّ فَقَرَّتْ بِذَلِكَ عَيْنَايَ ، وَدَعَوْتُ لِلدَّوْلَةِ السلْجُوقِيَّةِ وَمَلِكِهَا وَوَزِيرِها .

وَمَا لَبِثْتُ أنْ رَأيْتُ الإفْرَنْجَ يَحْمِلُونَ الصُّلْبَانَ

ويَغِيرُونَ عَلَى البِلادِ الإِسْلامِيَّةِ ، وَرَأَيْتُهُمْ منْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، وَقَدْ جُنَّ جُنُونُهُمْ حَتَّى سَافَرَ أُلُوفٌ مِنَ الأَطْفَالِ وَالغِلْمَانِ مِنْ بِلادِ الإِفْرَنْجِ لِيَفْتَحُوا القُدْسَ ، وَقَدْ غَرِقَ أَكْثَرُهُمْ في الطَّرِيقِ وَمَاتُوا ، وَرَأَيْتُ مُلُوكَ أُوْرُبَّةَ قَدْ تَحَالَفُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَدَفَّقَتْ مِنْ أُوْرُبَّةَ جُنُودٌ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ حَتَّى أَخَذُوا القدْسَ وَوَضعُوا في المسْلِمِينَ السَّيْفَ حَتَى سَالَتْ بِدِمَائِهِمْ سِكَكُ مَدِينَةِ القُدْسِ وَزَلَقَتْ فِيها الخَيْلُ ، وأَخَذُوا أَكْثَرَ مُدُنِ سُورِيَّةَ وَفِلِسْطِينَ وَهَدَّدُوا مِصْرَ وَالعِرَاقَ وَطَمعُوا في الحِجَازِ ، وَبَلَغَتْ بِهِمُ الجَرَاءَةُ وَالوَقَاحَةُ[1] أَنْ حَلَفَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ عَلَى إِهَانَةِ الجسَدِ الطَّاهِرِ الدَّفِينِ في المدِينَةِ عَلَيْهِ أَلْفُ أَلْفِ سَلامٍ .

رَأَيْتُ كُلَّ ذَلِكَ وَالْتَفَتُّ إلى الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ في نَيْسَابُورَ وَقُلْتُ أَيْنَ مُلُوكُهَا الذِين كَانُوا يَغْزُونَ الإِفْرَنْجَ وَيَهْزِمُونَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فإذا هِيَ قَدِ انْقَرَضَتْ سَنَةَ ٥٣٢هـ وَالتَفَتُّ إلى المسْلِمِينَ فَرَأَيْتُهُمْ فِي لَهْوٍ وَلَعِبٍ ، وَفِي غَزْوٍ وَنَهْبٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ .

---

(١) الوَقَاحة : قِلَّة الحيَاء .

وَرَأيْتُ النَّاسَ وَالمُلُوكَ وَالوُزَرَاءَ وَالعُلَمَاءَ في شُغْلٍ عَنِ الإفْرَنْجِ ، فَخِفْتُ عَلَى الإسْلامِ ، وَقُلْتُ عَلَى الدِّينِ السَّلامُ .

وإذَا بالسُّلْطَانِ نُور الدِّينِ الزنْكِيِّ وَالسُّلْطَانِ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِيِّ وَقَدْ نَـزَلا بِالإفْرَنْجِ وَقَارَعَاهُمْ[1] قِرَاعاً شَدِيداً ، وَلَمْ يَزَلْ صَلاحُ الدِّين يَضْرِبُ الحَدِيدَ بالحَدِيدِ حَتَّى هَزَمَ الإفْرَنْجَ في طَبَرِيَّة[2] شَرَّ هَزِيمةٍ ، وَدَعا بالبِرِنْسِ الذي حَلَفَ عَلَى إهَانَةِ جَسَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَضَرَبَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ قَائلاً ، اليوْمَ أنْتَصِرُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ .

وَانْتَزَعَ القُدْسَ وَالمدُنَ الشَّامِيَة مِنْ أيْدِي النَّصَارَى وَبَيَّضَ وَجْهَ المسْلِمِينَ في العَالَمِ ، وكَانَ فَتْحاً تَضَاءَلَتْ أمَامَهُ الفُتُوحُ وأثْنَى عَلَيْهِ الملائِكَةُ وَالرُّوحُ ، وَقالَ قَائِلٌ مِنَ المسْلِمِينَ .

هَذَا الَّذِي كَانَتِ الأيَامُ تَنْتَظِرُ
فَليُـوفِ للهِ أقْـوَامٌ بمِـا نَـذَرُوا

---

(١) قَارَعَ الأبطال : أي : ضَرَبَ بَعْضُهم بعضاً بالسُّيوف .
(٢) طَبَرِيَّة : بُحيرة ومدينة بفلسطين .

ثُمَّ انْحَدَرْتُ إلى أسْفَلَ فَرَأيْتُ أنَّ بَغْدَادَ الَّتي زُرْتُهَا قَبْلَ دَقَائِقَ قَدْ زَحَفَ[1] إلَيْهَا جَرَادٌ مِنَ التَتَرِ[2] فَخَرَّبَها تَخْرِيباً ، وَفَجَّرُوا مِنْ دِمَاءِ أهْلِها أنْهَاراً ، وَرَفَعُوا مِنْ رُؤُسِهِمْ مَنَاراً ، وَقَتَلُوا الخلِيفَةَ المُسْتَعْصِمَ شَرَّ قِتْلَةٍ ، وَرَمَوْا بالكُتُبِ النَّفِيسَةِ في مَاءِ دَجْلَةَ فَاسْوَدَّ تَارَةً بِسَوَادِها ، وَاحْمَرَّ تَارَةً بِدِمَاءِ أهْلِهَا ، وَلَوْلا أنِّي أعْرِفُ مَكَانَهَا عَلَى شَاطِىءِ دَجْلَةَ لأنْكَرْتُ هَيْئَتَهَا وَلَمْ أعُدْ أعْرِفُهَا .

وَرَأيْتُ التَّتَرَ جَرَاداً مُنْتَشِراً في العَالَمِ الإسْلاميِّ وَقَدْ خَرَّبُوا المدُنَ الإسْلاَميَّةَ الكُبْرَى وَعَواصِمَ الشَّرْقِ ، نَقَضُوا بِنَايَاتِها وخَرَّبُوا مَسَاجِدَهَا ، وأحْرَقُوا دُورَهَا ، وَذَبَحُوا أهْلَهَا ، ومَزَّقُوا دَوْلَةَ خُوَارِزِمْ شَاه[3] في خُرَاسَانَ[4] وَقَضَوْا عَلى الخِلافَةِ العبَّاسيَّةِ في العِرَاقِ ، واسْتَشْعَرَ[5] المسْلِمُونَ الخوْفَ وَالجبْنَ حَتَّى صَارُوا لا يُصَدِّقُونَ

---

(١) زَحَفَ إليها : مَشَى قليلاً قليلاً .

(٢) التتر : شعوب اكتسحت أجزاءً من آسيا وأوربا ، وأصلهم من أواسط آسيا .

(٣) كان من كبار ملوك دولة « خُوارزم » الواقعة في آسيا الوسطى ، كان لها حضارة غنية ومتقدمة ، أخضعت لها مدن كُبرى كـ : بخارى وسمرقند .

(٤) دولة قديمة تقع اليوم في شرق إيران .

(٥) استشعر ، أي : شعر .

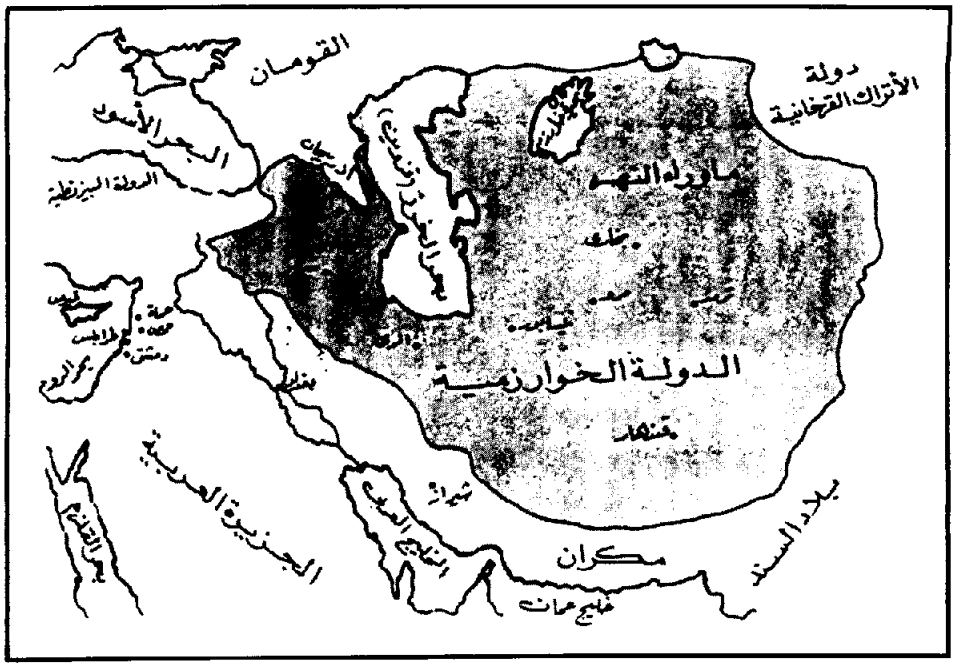

خريطة الدولة الخوارزمية

بهَزِيمَةِ التَّتَرِ ، واشْتَهَرَ عَلَى ألْسِنَتِهِمْ : إذَا قِيلَ لَكَ إنَّ التَّتَرَ انْهَزَمُوا فَلا تُصَدِّقْ .

وَخِفْتُ عَلَى الإسْلاَمِ مَرَّةً ثَانِيةً وَقُلْتُ لَعَلَّ هَذِهِ آخِرُ سَاعةٍ مِنْ سَاعَاتِهِ ، وإذا بِي أرَى التَّتَرَ يَدْخُلُونَ في الإسْلامِ أفْوَاجاً ، وإذَا بِفَاتِحِ المسْلِمِينَ يَعُودُ مَفْتُوحاً للإسْلامِ فَعَرَفْتُ أنَّ هَذَا الدِّينَ خَالِدٌ ، وأنَّهُ يَقْهَرُ كَلَّ قَاهِرٍ .

وَلَكِنْ ضَعُفَ أمْرُ المسْلِمِينَ ، وسَادَ الجُمودُ

خريطة الـــــدولة العثمـــــانيـــــة

وَالخُمودُ[1] في أنْحَاءِ العَالَمِ الإسْلاميِّ وَلَمْ أرَ شَيْئاً يُقِرُّ العَيْنَ وَيَشْرَحُ الصَّدْر ويَبْعَثُ الأمَلَ في النَّفْسِ إلَّا أنِّي رَأيْتُ في آسْيَا الصُّغْرَى جَمْرَةً مِنْ حَيَاةٍ ، وآيةً منْ نَشَاطٍ وَقَدْ أسَّسَ الغَازِي عُثْمَانُ خَانْ دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً ، وكَانَ لِهَذِهِ الدوْلَةِ الفَتَاةِ مُسْتَقْبَلٌ عَظِيمٌ ، وَقَدْ فَتَحَ شِبْلُهَا الغَازِي مُحَمَّدُ الثَّانِي القِسْطَنْطِينيَّةَ عَاصِمَةَ العَالَمِ النصْرَانيِّ سَنَةَ ٨٥٨هـ واتَّخَذَها قَاعِدَةَ مُلْكِهِ ، وخَلَفَهُ مُلُوكٌ عِظَامٌ تَوَغَّلُوا[2] في أوْرُبَّة وَقَهَرُوا الأمَمَ النَّصْرَانِيَّةَ .

هَنَالِكَ التَفَتُّ إلَى بِلادِ الأنْدَلُسِ مَرَّةً ثَانِيَةً . فَرَأيْتُ قُرْطُبَةَ وَمَاجَاوَرَهَا مِنَ البُلْدَانِ الإسْلاَمِيَّةِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ أيْدِي المسْلِمِينَ ، وإذَا المسَاجِدُ قَدْ عَادَتْ كَنَائِسَ للنَّصَارَى ، يَرِنُّ فِيهَا النَّاقُوسُ[3] ، وإذَا وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ وَدِينٌ نَصْرَانِيٌّ ، وحَضَارةٌ شِبْهُ عَرَبِيَّةٍ ، وَحَيَاةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، فَاسْتَرْجَعْتُ[4] وَبَكَيْتُ .

---

(١) الخُمود : السكون والهدوء .

(٢) توغَّلوا ، أي : دخلوا .

(٣) النَّاقُوس : جمعه النَّوَاقِيس : هو مِضراب النصارى الَّذي يضربونَه إيْذاناً عند صلاتهم .

(٤) استرجعت : قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

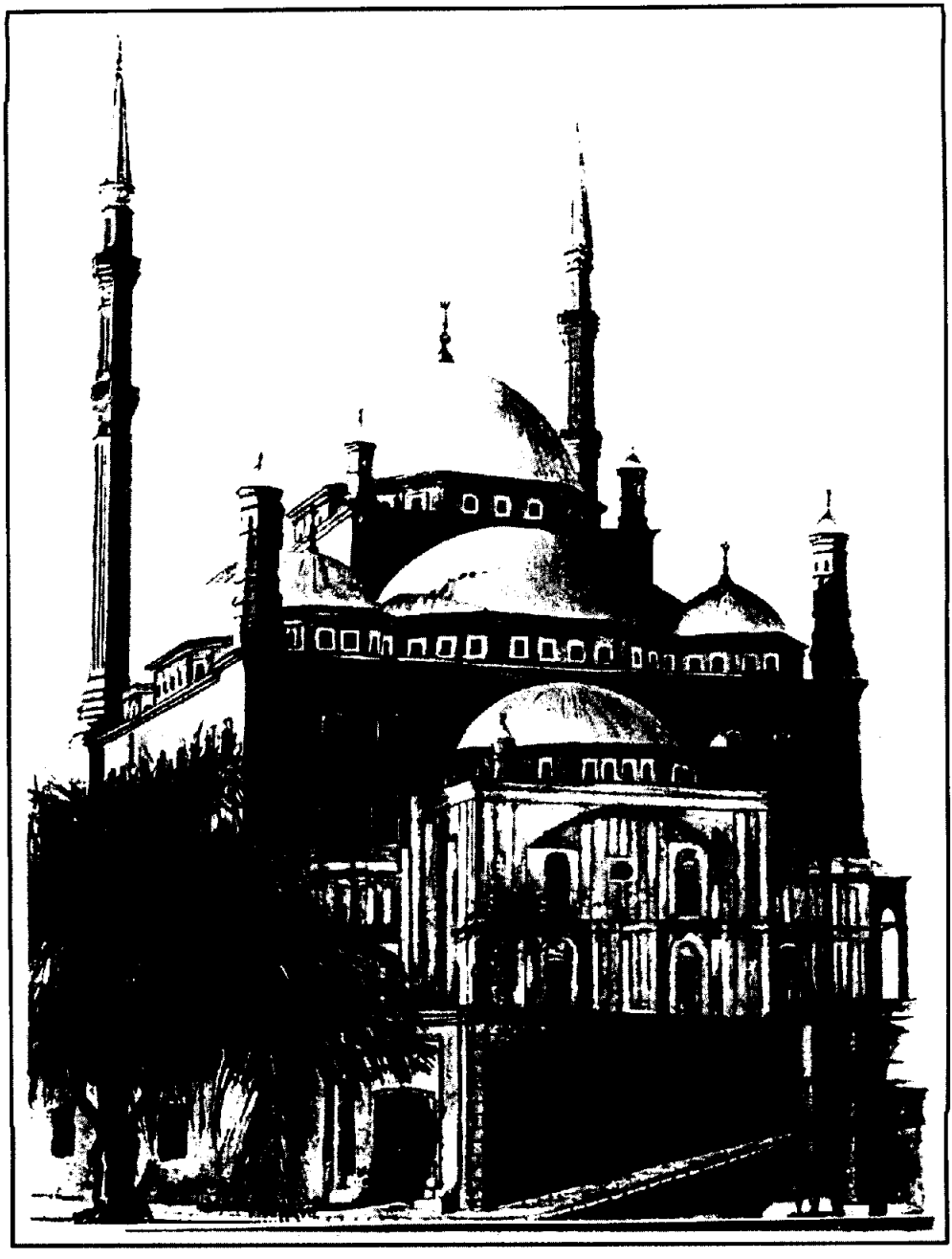

صورة مسجد محمد علي بالقلعة (في إستنبول)

وَسَرَّحْتُ طَرْفي[1] في جَزِيرَةِ الأنْدَلُسِ فَرَأَيْتُ غِرْنَاطَةَ العَرَبِيَّةَ الإسْلاَمِيَّةَ كَأَنَّهَا جَزِيرَةُ الإسْلامِ في بَحْرِ الكُفْرِ وَالظُّلُمَاتِ ، ومَا لَبِثَتْ أنْ غَمَرَهَا المَاءُ[2] أيْضاً ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا المَلِكُ النصْرَانِيُّ « فَرْدِنَنْد » ، وَمَلَكَتْهَا إزَابلاَّ ، وَرَأيْتُ أبَا عَبْدِ اللهِ آخِرَ مُلُوكِ بَنِي الأحْمَرِ يُسَلِّمُهَا مَفَاتِيحَ مُلْكِهِ وَيُلْقِي عَلَى غِرْنَاطَةَ وَقَصْرِ الحمْرَاءِ نَظْرَةَ الوَدَاعِ ، ويَبْكِي وَيَرْحَلُ إلى مَرَّاكِشَ[3] .

ومَا لَبِثْتُ أنْ رَأيْتُ البِلادَ الأنْدَلُسِيَّةَ الإسْلامِيَّةَ تُحَوَّلُ نَصْرَانِيَّةً ، والأمَّةُ العَرَبِيَّةُ تُجْبَرُ عَلى الارْتِدَادِ[4] ، رَأَيْتُ مَسَاجِدَ تُهْدَمُ أوْ تُحَوَّلُ كَنَائِسَ ، ومَدَارِسَ تُعَطَّلُ وَمَكَاتِبَ تُحْرَقُ وَقُبُوراً تُنْسَفُ[5] وأجْسَاداً تُنْبَشُ[6] وَأحْيَاء يُحْرَقُونَ وَيُشْنَقُونَ ، وَمَا لَبِثَتِ البِلادُ التي حَكَمَ فِيهَا الإسْلامُ ثَمَانِيَةَ

---

(١) سرحت طرفي ، أي : حركت جفني أو استرجعت انتباهي إلى شيء .
(٢) غَمَرَهَا الماءُ ، أي : عَلاها الماءُ وَسَتَرَهَا .
(٣) مراكش : مدينة كبيرة تقع في المغرب ، أسَّسها يوسف بن تاشفين عام ١٠٦٢م ، وهي اليوم عاصمة المغرب .
(٤) الارْتِدَاد ، تُصدر من : ارْتَدَّ (فُلانٌ) يَرْتَدُّ ، أي : كَفَر (فلانٌ) بَعْدَ إسْلامِهِ .
(٥) قُبُوراً تُنْسَفُ ، أي : تُدَكُّ أو تُحْفَرُ .
(٦) أجْساداً تُنْبَشُ ، أي : تُخْرَجُ .

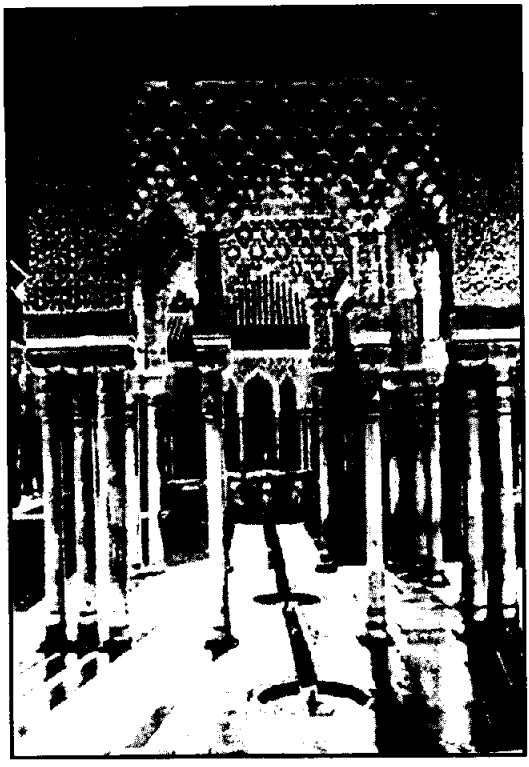

صورة الحمراء

قرُونٍ أنْ أصْبَحَتْ نَصْرَانِيَّةً لَيْسَ فِيهَا أحَدٌ يَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الإسْلامِ وَيُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

رَاعَنِي هَذَا المنْظَرُ[1] وَفَزِعْتُ مِنْهُ فإذَا أنَا عَلَى فِرَاشِي وَقُلْتُ لَعَلَّ اللهَ أرَادَ بي خَيْراً فَقَدْ أرَاني أطْوَارَ[2] العَالَمِ الإسْلاَميِّ وَألْوَانَ المسْلِمينَ ، أرَاني عَهْدَ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ ثُمَّ أرَاني انْحِطَاطَ المسْلِمينَ ، وأرَاني كَيْفَ يُسْلِمُ الكَافِرُ

(١) رَاعَنِي هذا المَنْظَرُ ، أي : ألْقَانِي في الخَوْفِ والرُّعْبِ .

(٢) أطوارٌ ، أي : أوْضَاعٌ (مفردها : طَوْرٌ) .

ويَخْضَعُ القَاهِرُ ، وكَيْفَ يَرْتَدُّ المسْلِمُ وَتَتَنَصَّرُ البِلادُ الإسْلامِيَّة بِغَفْلَةِ المسْلِمينَ وسُوء سِيرَتِهِمْ .

وَقُمْتُ وَقَدْ آلَيْتُ عَلَى نَفْسي[1] أنْ أكُونَ جُنْدياً للإسْلامِ مُرَابِطاً عَلَى ثُغُورِهِ ، وأنْ لا تَعُودَ حَادِثَةُ الأنْدَلُسِ في العَالَمِ الإسْلامِيِّ .

* * *

(١) آلَيْتُ على نَفْسي ، أي : عَزَمْتُ .

صورة المنارة

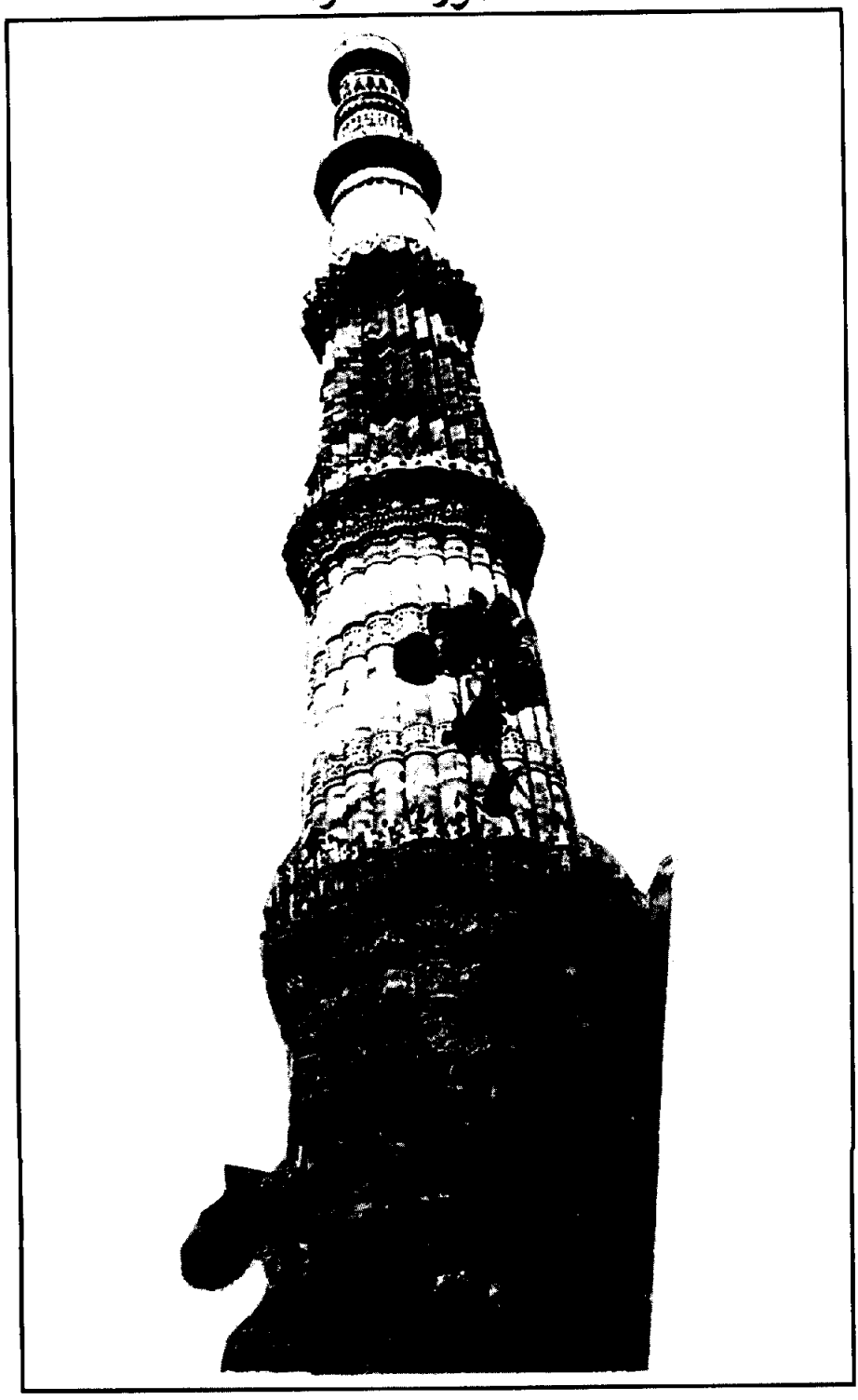

المَنَارَةُ تَتَحَدَّثُ

خَرَجْتُ يَوْماً مِنْ مَدِينَةِ دِهْلِي[1] أَرَوِّحُ نَفْسِي مِنْ صَخَبِ الأَسْوَاقِ وَعَنَاءِ الأَشْغَالِ ، وَذَهَبْتُ إِلَى مَنَارَةِ قُطْبِ الدِّينِ[2] خَارِجَ دِهْلِي .

وَرَأَيْتُ هَذِهِ المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ فَإِذَا هِيَ آيَةٌ فِي الهَنْدَسَةِ وَالبِنَاءِ ، مَبْنِيَّةٌ مِنَ الحِجَارَةِ الصُّلْبَةِ الحَمْرَاءِ تَنْطِقُ بِعَظَمَةِ القُدَمَاءِ .

وَبَيْنَمَا أَنَا أَدُورُ حَوْلَ هَذِهِ المَنَارَةِ بَيْنَ قُبُورٍ وَقُصُورٍ ، وَأُفَكِّرُ فِي ضَعْفِ الإِنْسَانِ وَقُوَّةِ البُنْيَانِ ، إِذَا صَوْتٌ يَرِنُّ فِي أُذُنِي وَيَقُولُ : « أَيُّهَا الرَّجُلُ ! اسْمَعْ » .

وَالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَ أَحَداً وَسَرَّحْتُ طَرْفِي فَإِذَا المَكَانُ

---

(١) دِهْلِي : عاصمة الهند .

(٢) منارة قطب الدين : منارة بناها السلطان قطب الدين والسلطان شمس الدين التمش ، تُعدُّ اليومَ من أهمِّ وأعظم الآثار الإسلامية في الهند .

هَادِىءٌ لَيْسَ هُنَا دَاعٍ وَلا مُجِيبٌ ، وَلَيْسَ هُنَا إِلَّا الحِجَارَةُ الصَّمَاءُ البَكْمَاءُ .

وَإِذَا صَوْتٌ يَتَرَدَّدُ « أَيُّهَا الرَّجُلُ اسْمَعْ » فَأَصْغَيْتُ إلى هَذَا الصَّوْتِ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ المنَارَةِ ، فَرَأَيْتُ عَجَباً .

رَأَيْتُ عَجَباً إِذْ سَمِعْتُ المنَارَةَ تَتَكَلَّمُ ، فَقُلْتُ لَمْ أَرَ كَاليَوْمِ حِجَارَةً تَنْطِقُ ، وَمَنَارَةً تَتَحَدَّثُ !

وإِذَا صَوْتٌ أَجْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ قَبْلُ ، اسْمَعْ أَيُّهَا الرَّجُلُ وَلا تَخَفْ ، فَقَدْ أَنْطَقَنِيَ اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .

هُنَالِكَ وَقَفْتُ أَسْتَمِعُ لِهَذَا الصَّوْتِ فَإِذَا المنَارَةُ تَقُولُ :

أَنَا وَاقِفَةٌ هُنَا مُنْذُ أَكْثَر منْ سَبْعَةِ قُرُونٍ لَمْ أَبْرَحْ مَكَانِي سَاعَةً وَلَمْ أَغْمِضْ عَيْنِي طَرْفَةً ، أُشَاهِدُ تَقَلُّبَاتِ الزَّمَانِ وَتَحَوُّلِ الملْكِ وَالسُّلْطَانِ ، كَأَنِّي قُطْبٌ يَدُورُ حَوْلَيْ رَحَى الحَوَادِثِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ في هَذِهِ المدَّةِ مِنَ العَجَائِبِ ما أَضْحَكَنِي قَليلاً ، وَمنَ المحْزِنَاتِ مَا أَبْكَاني طَوِيلاً ، وَلَوْلا أَنَّ قَلْبِي مِنْ حَجَرٍ لانْشَقَّ حُزْناً .

وَلا أنْكِرُ أنِّي رَأَيْتُ في هَذِهِ المُدَّةِ مُلُوكاً عَادِلينَ ، وَرِجَالاً منَ العُلَماءِ وَالصَّالِحينَ ، قَرَّتْ بِهِمْ عَيْني وَزَالَتْ بِهِمْ أحْزَانِي .

وهَا أنَا ذَا أقُصُّ عَلَيْكَ خَبَرِي ، ومَا جَرَى في هَذِهِ البِلادِ بَيْنَ سَمْعِي وَبَصَرِي .

سَمِعْتُ أنَّ السُّلْطَانَ مَحْمُودَ الغَزْنَويَّ هُوَ الَّذِي فَتَحَ هَذِهِ البِلادَ لِلإسْلامِ وَدَوَّخَهَا مِنَ الشَّمَالِ إلى الجَنُوبِ

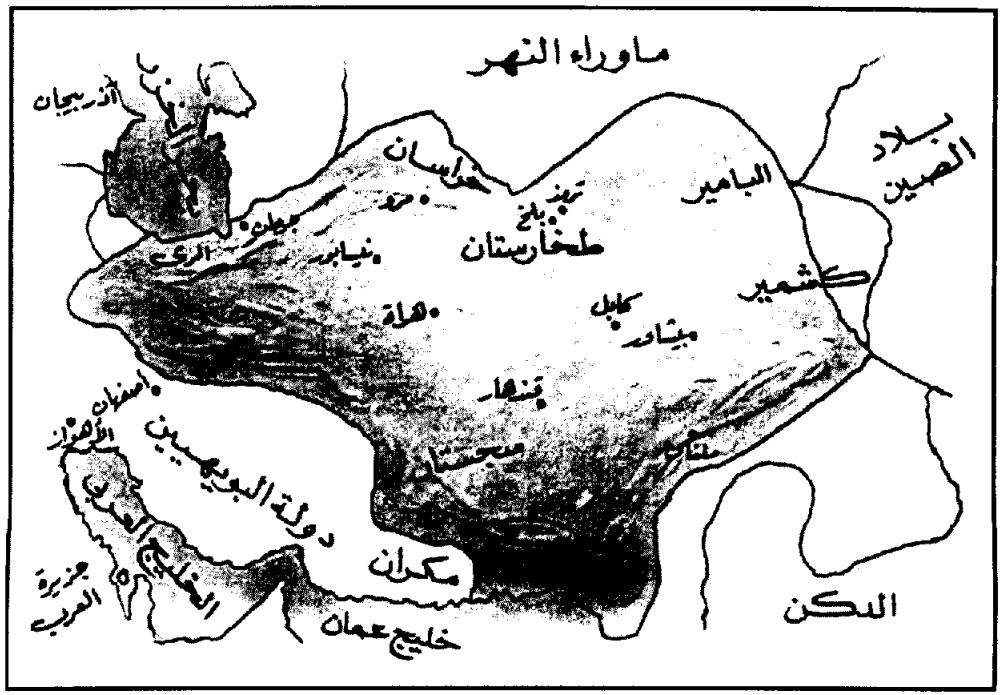

خريطة الدولة الغزنوية

وهَزَمَ الأَحْزَابَ وَالجُنُودَ المجَنَّدَةَ لِمُلُوكِ الهِنْدِ فَكَانَ بُرْهَاناً عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَغْلِبُ العَدَدَ ، وَذَلِكَ في فَجْرِ القَرْنِ الخَامِسِ الهِجْرِيِّ ؛ وَبَعْدَ قَرْنٍ وَنِصْفٍ غَزَا الهِنْدَ السُّلْطَانُ شِهَابُ الدِّينِ الغَوْرِيِّ وَهُوَ الذي رَسَخَتْ بِهِ قَدَمُ المسْلِمِينَ في هَذِهِ البِلادِ وَقَامَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ .

وَلَكِنَّ الَّذِي فَتَحَ هَذِهِ البِلادُ في الحَقِيقةِ وأَخْضَعَهَا لِلإِسْلامِ هُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الشَّيْخُ مُعينِ الدِّينِ الجُشْتِيِّ[1] الَّذِي اهْتَدَى بِهِ إِلى الإِسْلامِ أُلُوفٌ مِنَ المشْرِكِينَ وَكَانَ دُعَاؤُهُ سِلاحاً لِلْغَوْرِيِّ وَجُنَّةً .

أنا أَقُولُ : « سَمِعْتُ » لأَنِّي لَمْ أَكُنْ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ فأَنَا وَلِيدَةُ القَرْن السَّابِعِ فَقَدْ بَنَانِي قُطْبُ الدِّينِ مَنَارَةً لِجَامِعِ « قُوَّةِ الإِسْلامِ » وَتَمَّ بِنَائِي عَلَى يَدِ شَمْسِ الدِّين وَبَقِيتُ فَرِيدَةً مُنْذُ وُلِدْتُ .

وَمِنْ حَسَنَاتِ الإِسْلامِ أَنَّهُ جَعَلَ العَبِيدَ سَادَةً

---

(١) أحد كبار المصلحين الربانيين في الهند ، وهو مؤسِّس سلسلة « الجشتية » في الصوفية ، وقد أسلم على يده ألوف من الهندوس ، توفي بمدينة أجمير (الهند) سنة ١٢٣٦هـ .

خريطة الدولة الغورية

والمَمَالِيكَ مُلُوكاً ؛ فَقَدْ خَلَفَ الغَوْرِيَّ مَمْلُوكَهُ قُطْبُ الدِّينِ ، وَخَلَفَهُ مَمْلُوكَهُ شَمْسُ الدِّينِ ، وَاسْتَمَرَّتْ دَوْلَةُ المَمَالِيكِ ٨٧ سَنَةً جَاءَ فِي خِلالِهَا مُلُوكٌ يَتَجَمَّلُ تَارِيخُكُمْ بِهِمْ كَالقَائِدِ قُطْبِ الدِّينِ أيْبَك ، وَالمَلِكِ الصَّالِحِ نَاصِرِ الدِّينِ مَحْمُود بن الْتَمَشْ ، وَالمَلِكُ العَادِلُ غِيَاثُ الدِّين بَلْبَنْ .

وَفِي عَصْرِ السُّلْطَانِ شَمْسِ الدِّينِ كَانَ في دِهْلِي

الشَّيْخُ الكَبيرُ قُطْبُ الدِّينِ بَخْتِيَارِ الكَعْكِيِّ[1] ، وطَالَمَا رَأَيْتُ السُّلْطَانَ شَمْسَ الدِّينِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ في اللَّيْلِ ويَخْدِمُهُ وَيَغْمزُ[2] رِجْلَيْهِ ويَبْكِي .

وَانْقَرَضَتْ[3] دَوْلَةُ سَادَتِي الممَالِيكُ ، وَالأرْضُ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَجَاءَ الخلْجُ وَرَأيْتُ منْ غَرَائِبِ الإنْسَانِ ، عَماً كَريماً يَقْتُلُه ابْنُ أخِيه وَخَتَنُهُ .

وَلَكنَّ عَلاءَ الدِّينِ بَعْدَ ما قَتَلَ عَمَّهُ جَلالَ الدِّينِ ضَبَطَ البِلادَ ، وسَنَّ القَوَانِينَ وَعَيَّنَ الأسْعَارَ وَبسَطَ الأمْنَ وأوْغَلُ في الهِنْدِ .

وَقَضَى عَلَى الخُلْجِيِّينَ بِالزَّوَالِ بَعْدَ ٣١ سَنَةٍ ، سُنَّةَ اللهِ في الأرْضِ ، وَوَرِثَهُمْ آلُ تُغْلُقَ ، وَكَان مِنْهُمْ مَلِكٌ غَرِيبُ الأخْلاقِ أعْنِي مُحَمَّدَ تُغْلُقَ ، المَلِكَ العَاقِلَ المجْنُونَ الَّذِي أرَاد أنْ يُحَوِّلَ العَاصِمَةَ إلى دَوْلَتِ آبَادَ وَلَكِنَّ اللهَ رَحِمَ وَحْشَتي وَلَمْ يُفْلِح المِلكُ .

وَخَلَفَهُ شَابٌ صَالِحٌ مِنْ بَيْتِهِ اسمُهُ فَيْرُوزُ الَّذِي بَنَى

---

(١) كان من كبار المشايخ المصْلحين المربين في الهند .
(٢) يَغْمِزُ رِجْلَيْهِ ، أي يَمِيْلُ بهما في المَشْي .
(٣) انْقَرَضَتْ ، أي : انْقَطَعَتْ وانْتَهَتْ .

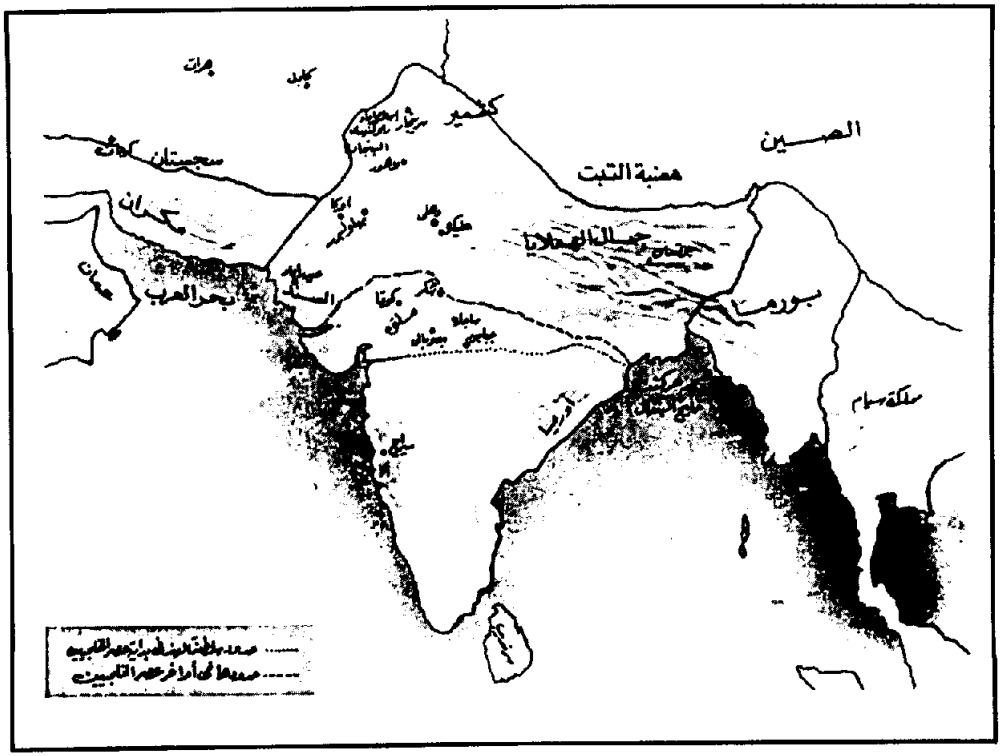

خريطة الدولة الخلجية

المسَاجِدَ وَالمَدَارِسَ ؛ وَأنْشَأ الشَّوَارِعَ وَالرِّبَاطَاتِ[1] ، وَرَدَّ المَظَالِمَ .

وَفِي هَذَا العَهْدِ كَانَ العَبْدُ الصَّالِحُ الشَّيْخُ نِظَامُ الدِّينِ البَدَايُوني ، وَكَانَتْ لَهُ زَاوِيَةٌ عَامِرَةٌ يَؤُمُّهَا مِئاتٌ مِنَ الطَّالِبِينَ فَكَانتْ إمَارَةً رُوحيَّةً في جَنْبِ إمَارَةٍ مَادِّيَّةٍ تَفُوقُها في السُّلْطَانِ عَلَى القُلُوبِ .

---

(١) رِبَاطَات ، جمع رِبَاطٌ ، أي : مَبْنى مجهَّز مَوْقُوفٌ على الفُقَراءِ .

حَكَمَ آلُ تُغْلُقَ ١٣٥ سَنَة ، مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ثُمَّ طُوِيَ بِسَاطُهُمْ ـ وَالحُكْمُ للهِ ـ وَآلَ الأمْرُ إلى اللُّودَهِيِّينَ ، وَكَانَ أوْسَطُهُمْ سكَنْدَرَ اللُّودَهِي ، وَكَانَ عَادِلًا فَاضِلاً يُحِبُّ العِلْمَ والعُلَمَاءَ .

وَفِي هَذَا العَهْدِ ازْدَهَرَتْ مَدِينَةُ جَوْن بُور[١] وَبَلَغَتْ أوْجَهَا[٢] في عَهْدِ إبْرَاهِيمَ شَاه الشّرْقِيِّ (٨٠٤ ـ ٨٤٤هـ) وَكُنْتُ أسْمَعُ أحَادِيثَ مَلِكِها وَأَخْبَارَ عُلَمَائِهَا كَمَلِكِ العُلَمَاءِ القَاضِي شِهَابِ الدِّينِ الدَّوْلَتْ آبَادِيِّ وَالشَّيْخِ أبي الفَتْحِ بْنِ عَبْدِ المُقْتَدرِ الدَّهْلَوِيِّ ، وَقِصَصِ جَوَامِعِهَا وَمَدَارِسِها .

وَازْدَهَرَتْ كَذَلِكَ مَدِينَةُ أحْمَدُ آبَادِ وَفَاقَتِ الهِنْدُ بِمُلُوكِهَا الرَّاشِدِينَ وَعُلَمَائِهَا المحدِّثِينَ وَبِصَنَائِعِهَا وَكَثْرَةِ جِنَانِها وَحَدَائِقِهَا وَحُسْنِ نِظَامِهَا ، وكُنْتُ أسْمَعُ أخْبَارَ مَحْمُودَ شَاه وَابْنَهُ مُظَفَّر شَاه الحَلِيمَ[٣] (٨٦٢ ـ

---

(١) مدينة تقع في بولاية « أترابرديش » في الهند ، كانتْ مركزاً ثقافياً كبيراً في القرون الماضية في عهد الحكام المسلمين .

(٢) بَلَغتْ أوْجَهَا ، أي تقدَّمتْ وازْدَهَرَتْ .

(٣) من يريد الاستزادة في الاطلاع عليه فليقرأ ما كتب عنه العلامة علي الطنطاوي في =

٩٣٢هـ) فَكَأَنِّي أَسْمَعُ أَخْبَارَ رِجَالِ خَيْرِ القُرُونِ .

وَفِي عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ اللُّودَهِيِّ سَنَةَ ٩٣٣هـ جَاءَ بَابُرْ وَهُوَ مِنْ آلِ تَيْمُورَ مِنْ كَابُلَ وكَسَرَ جُنُودَ اللُّودَهِيِّ وَهِيَ مِئَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ في سَاحَةِ پَاني پَتْ[١] باثْنَيْ عَشَرَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ فَكَانَ بُرْهَاناً عَلَى أَنَّ العَزِيمَةَ تَغْلِبُ الْكَثْرَةَ وَأَسَّسَ دَوْلَةَ المَغُولِ الَّتي لَهَا دُويٌّ[٢] في العَالَمِ وَآثَارٌ خَالِدَةٌ في الهِنْدِ .

وَفِي عَهْدِ ابْنِهِ هَمَايُون نَهَضَ شَيْرُ شَاه السُّوريُّ فَطَارَدَ هَمَايُونَ إلى إيرَانَ وَأَسَّسَ دَوْلَةً مُنَظَّمَةً لَمْ تُسْبَقْ ، وَعَمِلَ أَعْمَالًا جَلِيلةً لَوْ وُزِّعَتْ عَلَى عِدَّةِ مُلُوكٍ لَوَسِعَتْهُمْ ، فَأَنْشَأَ شَارِعاً مَسِيرَتُهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَغَرَسَ عَلَيْهِ الأَشْجَارَ ، وَبَنَى عَلَيْهِ المنَازِلَ وَالمَسَاجِدَ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ في خَمْسِ سَنَواتٍ ؛ ولا أَزَالُ أَغْبِطُ « سَهسْرام »[٣] إِذْ كَانَتْ عَاصِمَتَهُ وَمَدْفَنَهُ ، وَهُنَا تَخَلَّفَتْ دُهْلِي وَسَبَقَتْهَا مَدِينَةٌ صَغِيرةٌ .

= كتابه « رجال من التاريخ » .

(١) پَاني پتْ : مدينة تقع اليوم بولاية « هريانة » في الهند .

(٢) دَويٌّ هنا بمعنى السمعة والشهرة .

(٣) سَهَسْرام : اسْمُ المدينة .

وَخَلَفَ هَمَايُونَ الَّذِي اسْتَرَدَّ مُلْكَهُ بِمُسَاعَدَةِ شَاهِ إِيرَانَ ابْنُه الأَمِّيُ أَكْبَرُ .

وَهُوَ الَّذِي مَرَقَ مِنَ الإِسْلامِ وَأَخْتَرَعَ دِيناً جَدِيداً ، وَعَانَدَ المسْلِمينَ ، وَقَدْ أَنْجَاني اللهُ مِنْ مُصَاحَبَتِهِ إِذ اتَّخَذَ آكَرَه عَاصِمَتَهُ .

وَخَلَفَهُ ابْنُهُ جِهَانْكِيْر ، وَكَانَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِيهِ وَدُونَ ابْنِهِ وَحَفِيدِهِ ، وَاضْمَحَلَّتْ[1] آثَارُ أَكْبَرَ في عَهْدِهِ .

وَفِي هَذَا العَصْرِ نَهَضَ المُصْلِحُ الكَبِيرُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ السَّرْهَنْدِيُّ المُجَدِّدُ (م١٠٣٤ هـ) فَقَلَبَ التَّيَّارَ ، وَغَيَّرَ اللهُ بِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وانْتَصَرَ بِهِ الدِّينُ ، وَزَالَتْ بِهِ دَوْلَةُ المبْتَدِعِينَ .

وَفِي هَذَا العَصْرِ سَعِدَتْ الهِنْدُ أَيْضاً بِوُجُودِ عَالِمٍ كَبيرٍ خَدَمَ عِلْمَ الحَدِيث وَصَنَّفَ ، ودَرَّسَ طَوِيلاً وَهُوَ العَلامَةُ عَبْدُ الحَقِّ البُخَارِيُّ[2] (م١٠٥٢هـ) وَأَنَا سَعِيدٌ بِأَنَّهُ لا يَزَالُ فِي جِوَارِي .

---

(١) اضْمَحَلَّتْ آثَارُ أَكْبَرَ ، أي : انْمَحَتْ وانْدَرَسَتْ .

(٢) كان من كبار العلماء وعِظام المحدِّثين في الهند ، توفي عام ١٠٥٢هـ ، ودُفِنَ بمدينة « دهلي » .

وَخَلَفَ جِهَانْكِيرَ ابْنُهُ شَاهُ جِهَان ، وَهُوَ صَاحِبُ الآثارِ الجَمِيلَةِ في الهِنْدِ ، بَنَى جَامِعاً في دِهْلِي مِنْ أجْمَلِ مَسَاجِدِ المسْلِمينَ في العَالَمِ ، وَبَنَى القَلْعَةَ الحَمْرَاءَ ،

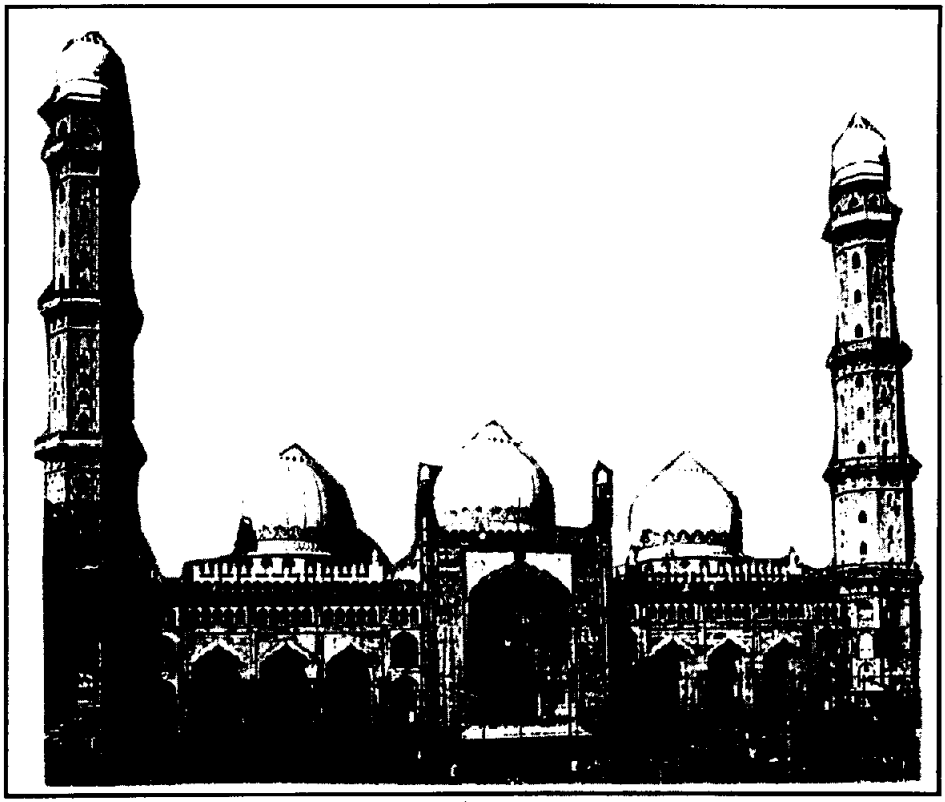

صورة الجامع

وبَنَى عَلَى قَبْرِ زَوْجِهِ التَّاجَ مَحَلْ وَهو الدُّرَّةُ اليَتِيمَةُ[1] في البِنَاءِ ، وَمَا وَدَدْتُ أنْ أبْرَحَ مِنْ مَكَاني إلَّا لأرَاهُ ، وَخَلَفَ شَاهَ جِهَانَ ابْنُهُ السُّلْطَانُ . اورَنْگ زِيبْ عَالمْكِير وَهُوَ رَجُلُ

(١) الدُّرَّةُ اليَتِيمة ، هي الدُّرةُ الثمينة التي لا نظير لها .

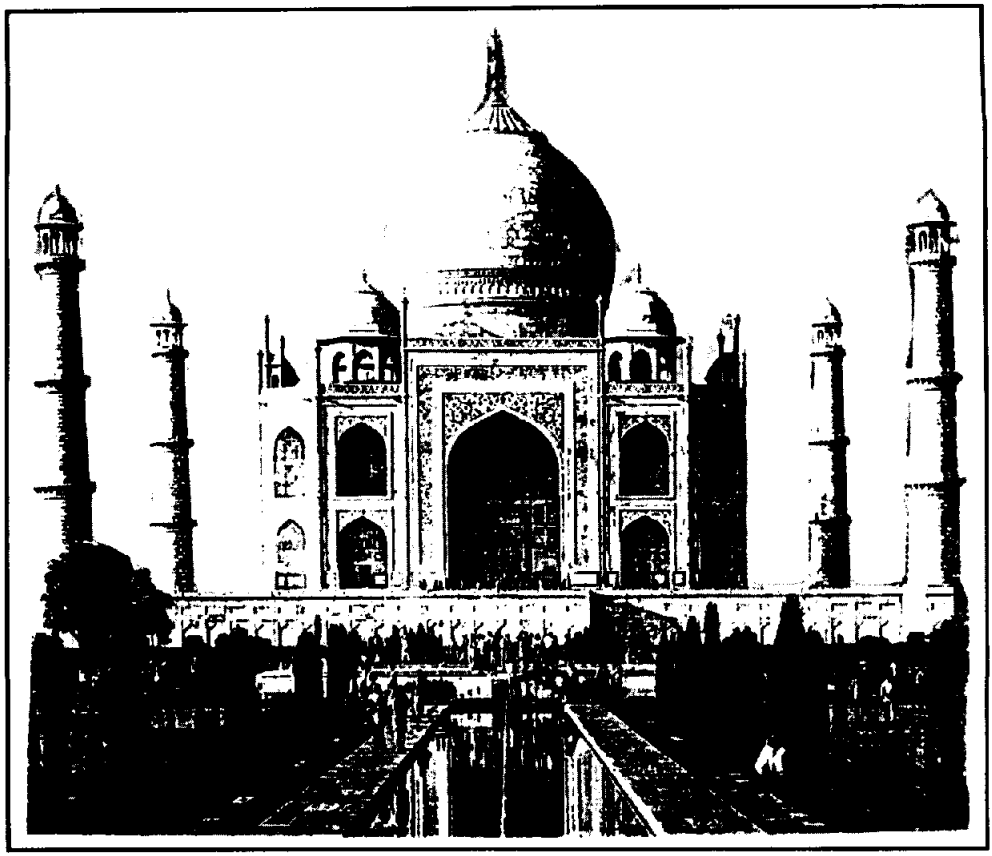

صورة تاج محل

هذَا البَيْتِ الرَّشيدِ ، فَأمَرَ بِتَدْوينِ الفِقْهِ وَأبْطَلَ المُكُوسَ وَالمَظَالِمَ عَنِ المسْلِمِينَ وَضَرَبَ الجِزْيَةَ عَلى المشْرِكينَ وَنَصَبَ المحْتَسبينَ وأقَامَ دَوْلَةَ العِلْمِ وَالدِّينِ .

وَمِنْ سُوءِ حَظِّ المُسْلِمِينَ في هَذِهِ البِلادِ أنَّ خُلَفَاءَ أورَنْگ زِيبْ لَمْ يَكُونُوا رِجَالًا أكْفَاءَ[1] في الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ فَأَصْبحَتِ السِّيَاسَةُ هَزْلًا وَالدَّوْلَةُ أُلْعُوبَةً ، مُلُوكٌ يَحْكُمُونَ

(١) رجالًا أكفَاءَ ، أي : أقوِيَاء .

صَبَاحاً ويُقْتَلُونَ مَسَاءً وَيُسْتَبْدَلُونَ كَالْخُلْقَانِ مِنَ الثِّيَابِ .

وَلا أضِيعُ وَقْتَكَ الثَّمِينَ في سَرْدِ أسْمَائِهِمُ الفَارِغَةِ .

وَهُنَا رَأَيْتُ ما أبْكَانِي ، فَقَدْ فَسَدَتْ أخْلاقُ المُسْلِمينَ في هَذَا العَصْرِ ، فَشَا فِيهِمُ الفُجُورُ ، وَعَمَّتِ الخُمورُ وَكَثُرتِ المَلاهي وَأقْبَلَ النَّاسُ عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالرَّقْصِ وَالغِنَاءِ ، فَكَأنْ لَمْ يُبْعَثْ نَبيٌّ وَلَمْ يَنْزِلْ كِتَابٌ وَالنَّاسُ في جَاهِلِيَّةٍ .

وَكُنْتُ أذْكُرُ قَولَ اللهِ تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] . وأخَافُ بَطْشَهُ .

وَفي عَهْدِ مُحَمَّد شَاه (م١١٦١هـ) بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى[1] وَطَمَّ الوَادِي عَلَى القُرَى ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَى أهْلِ دِهْلِي عِبَاداً لَهُ أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ .

جَاءَ نَادِرُ شَاه سَنَةَ ١١٥١هـ مِنْ إيرَانَ فَوَضَعَ فِيهِمُ السَّيْفَ ، وَبَلَغَ القَتْلَى مِنَ الهِنْدِيينَ في دِهْلي مِئَة أَلْفٍ

---

(١) بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى ، أي : بَلَغَ الأمرُ حدّاً لا يُحْتَمَلُ .

ونَيِّفاً ، وسالَتْ بِدَمَائِهِمُ الشَّوارِعُ ، وَلَمْ يُغْمَدِ السَّيْفُ إلَّا بَعْدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ .

ولَمْ يفِقْ أهْلُ دِهْلي وَالمسْلِمُونَ مِنْ سَكْرَتِهِمْ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمُ المرْهَتَةُ وَالسِّكَّةُ اجْتِمَاعَ الأكَلَةِ عَلَى القَصْعَةِ ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ ونَهْبٌ[1] ، وسَلْبٌ ، وَإهَانَةٌ وَجَلاءٌ[2] فخَرِبَتْ قُرَى كَثِيرَةٌ ، وَهُدِّمَتْ مَسَاجِدُ ذُكِرَ فِيها اسْمُ اللهِ كَثيراً ، وعَجَزَ المسْلِمُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ وَدَخَلَ في قُلُوبهِمُ الْجُبْنُ وَالخَوْفُ .

هَنَالِكَ رَحِمَ اللهُ هَذِهِ الأمَّةَ الهِنْديَّةَ فَبَعَثَ لَهَا أحْمَد شَاهْ الأبْدَالي مِنْ أفْغَانِسْتانَ سَنَةَ ١١٧٤هـ فَنَازَلَ المرْهِتَةَ في سَاحَةِ پاني پتْ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ وَهَزَمَهُمْ هَزِيمَةً لَمْ تَقُمْ لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ .

وَفِي هَذِهِ الأيَّامِ العَقِيمَةِ أنْجَبَتْ دِهْلي رَجُلاً عَظِيماً وَهُوَ الشَّيْخُ وَلِيُّ اللهِ بنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ[3] ، فَنَادَى

---

(١) النهب : ما يُؤْخَذُ ظُلْماً وقهْراً .

(٢) الإجلاء : هو إخْراج العَدُوِّ القومَ عن البلادِ .

(٣) أحد أكبر العلماء المصلحين في الهند في القرن الحادي عشر الهجري ، هو المعروف بـ « الشاه ولي الله الدهلوي » .

بالمسْلِمِينَ إلى الدِّينِ ، وَانْتَقَدَ الأمَرَاءَ الجَائِرِينَ وَالشُّيُوخَ المُبْتَدِعِينَ ؛ وَخَرَّجَ العُلَمَاءَ الرَّاسِخِينَ وَالدُّعَاةَ المُخْلِصينَ ، وصَنَّفَ الكُتُبَ البَدِيعَةَ في عُلُومِ الدِّينِ .

وَشَمَّرَ هُوَ وَأبْنَاؤُهُ النُّجَبَاءُ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ ، وَالشَّيْخُ رَفِيعُ الدِّينِ ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ القَادِرِ ، وَابْنُ ابْنِهِ الشَّيْخُ إسْمَاعيلُ[1] عَنْ سَاقِ الجِدِّ في خِدْمَةِ الدِّينِ ، فَمِنْ مُتَرْجِمٍ لِلْقُرْآنِ ، وَمِنْ شَارِحٍ لِلْحَديثِ ، وَمِنْ فَقِيهٍ يُضْرَبُ إلَيْهِ أكْبَادُ الإبِلِ ، وَمِنْ مُزَكٍّ لِلنُّفُوسِ ، وَمِنْ مُدَرِّسٍ لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، وَمِنْ مُجَاهِدٍ بالسَّيْفِ وَشَهِيدٍ في سَبيلِ اللهِ ، وَمِنْ مُهَاجِرٍ إلى بَيْتِ اللهِ ، وَالهِنْدُ تُبَاهِي بِهَذَا البَيْتِ الشَّرِيفِ الأقْطَارَ الأُخْرَى وَتُنْشِدُ :

أولئِكَ أَبْنَائِي[2] فَجِئْني بِمِثْلِهِمْ
إذا جَمَعَتْنَا يا جَرِيرُ المجَامِعُ

أرَاكَ يا سَيِّدي قَدْ سَئِمْتَ حَدِيثي وَطُولَ القِيَامِ هُنَا ، فَاصْبِرْ قَلِيلاً لَعَلِّي أُخَفِّفُ عَنْ نَفْسي بَعْضَ ما أجِدُهُ مِنَ الحُزْنِ .

---

(١) استُشهِد في معركة مع السيخ في بالاكوت ، ودُفِن فيها .

(٢) والبيت في الأصل : **أولئك آبائي فجئني بمثلهم** لكن أراد العلامة المؤلف بـ « أبنائي » هنا « أبناء البلد » .

نَسِيتُ أنْ أذْكُرَ لَكَ أنَّ الإنْكِلِيزَ قَدْ دَخَلُوا في الهِنْدِ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَر المسِيحيِّ تُجَّاراً وَأسَّسُوا شَرِكَةً تِجَارِيَّةً سَمَّوْهَا الشَّرِكَةَ الهِنْدِيَّةَ الشَّرْقِيَّةَ ، وَكَانَتْ بِذرَةَ فَسَادٍ أغْفَلَها المُلُوكُ المُسْلِمُونَ في بَسَاطَتِهِمْ وَحُسْنِ ظَنِّهِمْ ، وبَقِيَتْ هَذِهِ الشَّرِكَةُ تَشْتَغِلُ بالتِّجَارَةِ حَتَّى اضْطَرَبَ حَبْلُ الدَّوْلَةِ المَغُولِيَّةِ ، فَطَمَحَ رِجَالُهَا إلى المُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ وَصَارُوا يَتَدَخَّلُونَ في الأمُورِ ، وَيُحَرِّشُونَ[1] بَيْنَ الأمَرَاءِ وَيَضْرِبُونَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَنْتَهِزُونَ فُرْصَةً بَعْدَ فُرْصَةٍ حَتَّى أصْبَحُوا قُوَّةً في الهِنْدِ .

وَلَمْ يَزَلْ أمْرُ الإنْكِلِيز يَقْوَى وَأمْرُ الهِنْدِيِّينَ يَضْعُفُ حَتَّى أخَذُوا في الجَنُوبِ كَرْنَاتِكَ وَفِي الشَّرْقِ كَلْكُتَّهَ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَالِ الهِنْدِ ، وَرِجَالِهَا لَمْ يَبْذُلُوا في سَبِيلِ ذَلِكَ دِرْهَماً وَلا دَماً مِنْ قِبل أنْفُسِهِمْ .

وَقَدْ عَنِيَ بأمْرِ الإنْكِلِيزِ فَتى شَهْمٌ وَهُوَ النَّوَّابُ[2] سِرَاجُ الدَّوْلَة أمِيرُ مُرْشِدُ آبَادَ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإنْكِلِيزِ

---

(١) يُحَرِّشُونَ بين الأمَرَاءِ ، أي : يُفْسِدُوْنَ ويُغْرونَ بعضَهم ببَعْضٍ .

(٢) النَوَابُ : يقال باللغة الأردوية لأمراء الولايات الصغيرة .

وَقْعَةٌ فِي بَلاسِي[1] سَنَةَ ١١٧١هـ ـ ١٧٥٧م غَدَرَ فِيهَا الوَزِيرُ مِيْر جَعْفَرُ ، وانسَلَّ إلى الإنْكِليزِ فَانْهَزَمَ سِرَاجُ الدَّوْلَةِ وَانْتَقَلَتْ مُقَاطَعَةُ بِنْغَال إلى الإنْكِلِيزِ .

وَاجْتَهَدَ الأمَرَاءُ مَرَّةً ثانيَةً وَاجْتَمَعَ مِيْرُ قَاسِمُ خَتْنُ مِير جَعْفَرَ أمِيرُ مُرْشِدِ آباد ، وَشَاهُ عَالِم مَلِكُ دِهْلِي وَالنَّوابُ شُجَاعُ الدوْلَةِ أمِيرُ أوَدَه بِجُنُودِهِمُ الكَثِيفَةِ وَقَاتَلُوا الإنْكِليزَ وَهُمْ أقَلُّ مِنْهُمْ عَدَداً ، وَلَكِنْ أحْسَنُ مِنْهُمْ نِظَاماً فَانْهَزَمَ الهِنْدِيُّونَ وَانْكَسَرُوا في سَاحَةِ بكسر سنة ١١٧٨هـ ـ ١٧٦٤م ، فَكَانَ بُرْهَاناً عَلَى أنَّ النِّظَامَ يَغْلِبُ الزِّحَامَ ، وكَانَتْ لِلإنْكِليزِ الْيَدُ العُلْيَا وَالكَلِمَةُ النَّافِذَةُ ما بَيْنَ كَلْكُتَّه وَدِهْلِي .

ثُمَّ قَام الفَتَى الأبيُّ الغَيُّورُ السَّلْطَانُ تِيبُو أمِيرُ مَيْسُورَ[2] وَقَاتَلَ الإنْكِلِيزَ قِتَالًا شَدِيداً ، وَهَزَمَهُ الإنْكِلِيزُ بِقُوَّةِ المسْلِمِينَ وَالمرْهَتَةِ سَنَةَ ١٢١٤هـ ـ ١٧٩٩م وَغَدَرَ الوَزِيرُ مِيْرُ صَادِقُ وَانْسَلَّ إلَى الإنْكِلِيزِ ، وَمَاتَ السَّلْطَانُ

---

(١) مدينة تقع في بنغال (في الهند) .

(٢) مَيْسور : ولاية قديمة ، تقع اليوم في « كرناتاكا » في جنوب الهند .

الشَّهِيدُ في سَاحَةِ القِتَالِ مَوْتَ الأَحْرَارِ الأَبْطَالِ مُدَافِعاً عَنْ دِينِهِ وَوَطِنِهِ .

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَ أَهْلَ الهِنْدِ فَمَنَحَهُمْ فُرْصَةً أُخْرَى فَنَهضَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الشُّبَّانِ المخْلِصينَ يَقُودُهَا فَتى مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ قَدْ جَاءَ مِنْ الشَّرْقِ ، كُنْتُ أَرَاهُ كَثيراً فِي مَدْرَسَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحْمَة اللهِ عَلَيْهِ وَمَسْجِدِ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ وَاشْتَهَرَ سَرِيعاً بِاسْمِ السِّيدِ أَحْمَدَ وَتَهَافَتَ عَلَيْهِ[1] النَّاسُ مِنْ كَلِّ جَانِبٍ وَبَايَعَهُ مُحَمَّدُ إِسْمَاعيل ابْنُ أَخِي الشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَعَبْدُ الحَيِّ خَتَنُ الشَّيْخِ وَعَالِمُ دِهْلي الْكَبِيرُ وَالعُلَمَاءُ وَالصُّلَحَاءُ . وَطَافَ هَؤُلاَءِ في البُلْدَانِ وَالقُرَى وَبَثُّوا دَعْوَة الرَّجُوعِ إِلى الدِّينِ وَالتمسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَشْعَلُوا في الصُّدُورِ شُعْلَةَ الجِهَادِ . وَاجْتَمَعَ حَوْلَهُمْ أَنَاسٌ هُمْ خَيْرُ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ عَيْنَيَّ دِيناً وَعِبَادَةً وَخُلُقاً وَمُعاشَرَةً ، وَغَيْرَةً وَحَمَاسَةً ، فَكَانُوا بِاللَّيْلِ رُهْبَاناً وَبِالنَّهَارِ فُرْساناً وَفِي الدِينِ أَبْدَالاً وَفِي القُوَّةِ أَبْطَالاً .

---

(١) تَهَافَتَ عليهم ، أي : أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ .

وَهَاجَرَ هَؤُلاءِ سَنَةَ ١٢٤١هـ إلى ثُغُورِ الهِنْدِ وَرَفَعُوا رَايَةَ الجِهَادِ ضِدَّ السِّكَّةِ[١] ، وبَايَعَ النَّاسُ إمَامَهُمْ السيِّدَ أحْمَدَ وَكَانَتْ الحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السِّكَّة سِجَالًا ، وسَمِعْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ أنَّهُمْ فتَحُوا أرْضاً وَاسِعَةً وَأسَّسُوا إمَارَةً عَلَى مِنْهَاجِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ وَنَفَّذُوا فِيهَا أحْكَامَ الشَّرْعِ ، وَأقَامُوا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكَاةَ وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ، وفتَحُوا بِشَاورَ عَاصِمَةَ الثُّغُور فَعَظُمَ شَأْنُهُمْ وَكَاتَبُوا أمِيرَ بُخَارَى وجِتْرَالَ وَأُمَرَاءَ أفغَانِسْتَانَ ، وَكَانُوا يُرِيدُونَ أنْ يُقِيمُوا دَوْلَة شَرْعِيَّةً مُسْتَقِلَّةً في الهِنْدِ .

كُنْتُ أسْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَالنَّاسُ يَفْرَحُونَ وَأنَا أخَافُ لأنِّي لَمْ أكُنْ آمَنُ عَلَيْهِمْ مِنَ المسْلِمينَ الغَدْرَ وَالخِيَانَةَ ، وَهُمَا مِنْ أمْرَاضِ المسْلِمينَ ، وَلَمْ تَذْهَبْ دَوْلَتُهُمْ إلا بِغَدْرِ المسْلِمِينَ وَخِيَانَتِهِمْ ونِفَاقِهِمْ ـ وَسَامِحْني يا سَيِّدي في هَذَا العِتَابِ المُرِّ فَلِيَ العُذْرُ ـ وَكُنْتُ أخَافُ ذَلِكَ خَاصَّةً في تِلْكَ البِلادِ ، وَلَمْ تَمْضِ يا سَيِّدي أيَّامٌ قَلِيلةٌ حَتَّى وَقَعَ ما كُنْتُ أحَذَرُهُ ، فَقَدْ سَمِعْتُ أنَّهُ غَدَرَ بِهِمُ الأمَرَاءُ الأفْغَانُ

---

(١) السِّكَة ، أي : السِّيْخُ : هي طائفةٌ دينيَّةٌ مُشتقَّةٌ من الدِّيانةِ الهندوسيَّةِ .

وَقَتَلُوا نُوَّابَهُمْ وَعُمَّالَهُمْ سُجَّداً وَقِياماً ، وَسَمِعْتُ أَنَّهُمْ الآنَ في طَرِيقِهِمْ إلى كَشْمِيرَ .

ثُمَّ سَمِعْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ أَنَّهُمْ دَهَمَهُمْ[1] العَدُوُّ في وَادِي بَالاكُوتَ في جِبَالِ هَزَارَا ، وذَلِكَ بِدَسِيسَةٍ بَعْضِ المسْلِمينَ أَيْضاً ـ وَقُتِلَ أَكْثَرُهُمْ وَلَم يَنْجُ مِنْهُمْ إلَّا القَلِيلَ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ الأَلِيمَةُ سَنَةَ ١٢٤٦هـ .

وَهَكذَا ضَاعَتْ هَذِهِ الفُرْصَةُ الثَّمِينَةُ وَللهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .

وَأَعُودُ إلى حَدِيثِ الإنْكِلِيزِ وَأَقُولُ إنَّهُمْ اخْتَلَقُوا ذُنُوباً عَلَى الأَمَرَاءِ كَمَا سَمِعْتُ فِي قِصَّةِ الذِّئْبِ وَالنَّعْجَةِ . وانْتَزَعُوا بَنْجَابَ[2] وَالسِّنْدَ[3] وَبُورْمَا[4] وَأَوْدَهْ[5] وَامْتَلَكُوهَا .

---

(١) دَهَمَهُمُ العَدُوُّ ، أي : هَاجَمَهُمْ فَجْأَةً .

(٢) بَنْجَاب : هي منطقة كبيرة تقع اليوم النصفَ في شمال الهند ، والنصف الباقي في شرقي باكستان .

(٣) السِّنْدُ : هو إقليم صحراويٌّ يقع في جنوب شرقي باكستان .

(٤) بُورْمَا : دولةٌ صغيرة تقع في جنوب شرقي آسيا ، على خليج البنغال .

(٥) ولاية تقع في أواسط شمالي الهند .

وَانْتَبَهَ الهِنْدِيُّونَ مِنْ سُبَاتِهِمْ وَاجْتَهَدُوا أنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الإنْكِلِيزِ سنةَ ١٨٥٧م .

فَكَانَتْ ثَوْرَةً كَبِيرَةً وَلَكِنْ فَشِلَتْ أيْضاً بِسُوءِ نِظَامِ الهِنْدِيِّينَ ، وَرَسَخَتْ قَدَمُ الإنْكِلِيز وَعَاقَبُوا الهِنْدِيِّينَ عِقَاباً شَدِيداً ، وَعَذَّبوهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ، وَفَتَكُوا بالبَيْتِ المَلَكِيِّ فَتْكاً شَدِيداً ، وَأسَرُوا بَهَادِرْ شَاه وَنَفَوْهُ إلى « رَنْكُونَ »[1] .

وَمِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ أفَلَ نَجْمُ[2] المسْلِمينَ في هَذِهِ الدِّيَارِ وَانْحَطُوا في الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَرَضُوا بِالذُّلِّ وَالعُبُودِيَّةِ ، وَفَسَدَتِ الأخْلاقُ ، وَسَقَطَتِ الهِمَمُ ، وضَاقَتِ الأرْزَاقُ ، وَغَلَتِ الأسْعَارُ ، وَعَمَّتِ المَجَاعَاتُ ، وَعَطَّلَتِ المَدَارِسُ ، وَأقْفَرَتِ الزَّوَايَا ، وَأوْحَشَتِ الْمَسَاجِدُ .

في سَنَةِ ١٩٤٧م تَحَرَّرَتِ البِلادُ مِنَ الإنْكِليزِ وَوَقَعَتْ اضْطِرَابَاتٌ هَائِلَةٌ . وَهَاجَرَ كَثِيرٌ مِنَ المسْلِمِينَ مِنْ بِلادِهِمْ وَقَامَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ في شَمَالي الهِنْدِ الغَرْبيِّ ، وَبَقِيَ سَائِرُهُمْ

---

(١) رَنْغُون : عاصمة بُورما .

(٢) أفَلَ نَجْمُ المُسْلِمينَ ، أي : فَقَدُوا شهرتَهم أو بَرِيقَهُمْ .

حَوْلي في الحُكُومَةِ الهِنْدِيَّةِ وَقَدْ فَقَدُوا نَشَاطَهُمْ وَاسْتَوْلى عَلَيْهِمُ اليَأْسُ .

وَلَسْتُ قَانِطاً يا سَيِّدي مِنْ رَحْمَةِ اللهِ « **وَهَلْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبه إلَّا الضَّالُّون** » .

وَلَمْ أيْأسَ مِنْ نَهْضَةِ المسْلِمينَ ، فَإنِّي رَأَيْتُهُمْ طُولَ هَذِهِ المدَّةِ كَالشَّمْسِ إذا غَرَبَتْ في جِهَةٍ طَلَعَتْ في جِهَةٍ أُخْرَى ، وأنَّهُمْ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إلا وَطَلَعَ لَهُمْ نَجْمٌ آخَرُ ، فَإنَّ مُسْتَقبَلَ العَالَمِ مَعْقُودٌ بِنَاصِيَتِهِم[1] ، وأنَّ اللهَ لا يُحِبُ الفَسَادَ في الأرْضِ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ .

إقْرَأْ عَلَى أُمتَّكَ مِنِّي السَّلامَ ، وَقُلْ لَهَا : إنِّي أُشْهِدُ اللهَ أنَّ هَذِهِ الأمَّةَ ما أفْلَحَتْ إلَّا بِالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ وَمَا خَسِرَتْ إلَّا بِالغَفْلَةِ عَنِ الدِّينِ ، وَلَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الأمَّةِ إلَّا ما أصْلَحَ أوَّلَهَا ؛ هَذَا الذي شَهِدْتُهُ وَاخْتَبَرْتُهُ في هَذِهِ القُرُونِ المتَطَاوِلَةِ ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

وَلَمَّا انْتَهَتِ المنَارَةُ مِنْ كَلامِهَا . انْصَرَفْتُ عَنْهَا

---

(١) الناصية : مقدم الرأس .

وَرَجَعْتُ إلى مَكَاني وَبِتُّ لَيْلَتي أُفَكِّرُ فيما سَمِعْتُ وَبَادَرْتُ في الصَّبَاحِ فَقَيَّدْتُ حَدِيثَ المسَاءِ .

* * *

دار ابن كثير
دمشق : ص. ب : ٣١١
بيروت : ص. ب: ١١٣/٦٣١٨